

عشر سنبلاتٍ... يابسات

دار خيال للنشر والترجمة ©
تجزئة 53 قطعة. رقم 27. بليمور
برج بوغريج - الجزائر-
0668779826

Khayaleditions@gmail.com

ردمك : 4-226-06-9931-978

الإيداع القانوني : السداسي الثاني 2020.

منور سهيلته

عشر سنبلات... يابسات

رواية

إلى كل اللاجئين في هذا العالم

مدخل

كنت صغيرا وظننت أن باستطاعة أبي أن يقف قاب شبر من الشمس دون أن يحترق، ليس لأنه كائن خارق أو بطل أسطوري على الأقل، ليس كالמידوسا ولا يمكنه أن يشبه هرقل ولو على سبيل المجاز... ولكني ظننت أنه يعرف حقيقة الأشياء كلها لأنه لطالما امتلك أجوبة لأسئلتى... ربما وقتها كانت أسئلتى لا تعدو أن تكون فضولا طفوليا يقبل كل شيء برحابة عقل، أما الآن فلا أظن

أن أبي قد عرف الحقيقة يوما لهذا لم تحرقه شمسها!

لو أن لي القدرة على تغيير لحظة واحدة من الزمن المنصرم لكنت جنّبت العائلة مأساتها، هاته ولكن ما حدث قد حدث وهما نحن الآن في اللحظة الراهنة نجني خرابنا بمرارة وغصة، "لو" هاته تقضُّ عليّ نومي، كل ليلة أفكر بالأمر نفسه، "ماذا لو ؟؟" والجواب دائما مستحيل وغير ممكن، هذا السؤال الصعب، هو نفسه الذي كفّ عنه "درويش" ليحصد ما هو أقل مرارة من الخراب: "كيف يرضى الله بهذه القسوة التي تمارس باسمه؟" هل يجب أن أطرح هذا السؤال، أم ينبغي أن أصوغه بشكل أوضح مثلا: كيف حدث هذا؟ أو من كان السبب في كل هذا؟ مهما غيرته فإن الإجابة ستكون واحدة والكارثة لا محالة ستكون نفسها... فعلا ما حدث قد حدث ولم يبق لي إلا حاضري وقلم... ولكنني أوّمن أن هذا الوطن يستحق أفضل بكثير، وهكذا قال المضحون الأوائل أو على الأقل هكذا اعتقدوا...

في عز أزمنا عرفت أننا لا نساوي شيئا، وأن كل ما نفخوه في رؤوسنا من كلام مجلجل لا يعدو كونه أداة تعبئة رخيصة عادة ما يتفنون بتزييقها لتبدو صادقة وحقيقية، في أول مواجهة لنا مع الحقيقة اكتشفنا أننا لا نساوي جناح بعوضة، وأن قدوم مليون منا إلى هذا العالم أو ذهابهم عنه، لن يشكل ذلك الفارق الكبير فعلى سبيل المثال لن يختل توازن العالم! لسنا أبطالاً ولسنا حتى أناساً عاديين، كل ما نحن عليه هو أننا "غاشي" لا أكثر ولا أقل لوقت غير بعيد كنت فخورا جدا بجزائريتي، ما علموني إياه طوال حياتي هو أنني بطل خارق، أنا الأذكي والأقوى والأكثر شجاعة وبسالة، أنا البطل، وكنت ممتننا جدا أنني كل هذا، كانت جزائريتي أمرا مقدسا واستثنائيا لا يمكنني التساهل فيه، للصرحة وبالرغم من كل شيء لا تزال هذه السامية المقرفة معززةً بداخلي ولكن مع فارق بسيط لم أعد أزيّف حقيقيتي لأبرهن انتمائي اللعين هذا، لا يجب أن أكون عنيفا ولا عصبيا ولا مستهترا، لن أبرر الأمر بالتاريخ ولا بالظرف ولا بالجغرافيا، لطالما سارت الأمور هنا على هذا النحو، لكل عيب أو خطأ لا بد من مبرر، نحن لا نخطئ ولكن الله غالب على أمره إنها جزائريتنا ولنقبلها كما هي، من هنا بدأت أعيد التفكير في كل ما يحمله هذا الرأس من أفكار ثقيلة ومُضنية وبدأت أتخلص من كل هاته المسلمات شيئا فشيئا، لم أكن يوما بطلا جزائريتي وإن أردت أن أكون فسأكون بطلا بعلمي، بحبي بتسامحي بإنسانيتي، أو على الأقل أكون إنسانا عاديا مُحتملا.

بداية أردت أن أعطي وصفا للمرحلة التي أنا بصدد الكتابة عنها ولكنني لم أجد مسمى يُسعفني، سأكتفي بأن أقول أنها الفترة التي

حكمتنا ففما الدم والخوف من الموت أحياناً والرغبة فففة أحياناً كثيرة هروباً من حياة صارت عبثية بشكل لا يُطاق، لم نفعل شيئاً سوى أننا انتظرنا أن تتوقف ماكنات القتل عن تشذيب الرؤوس التي عادة ما يسمونها رؤوس الفتنة، لا أعرف الاستعمال الأول لهذا المصطلح ولا منذ متى بدأ تداوله، منذ بدء الفتنة أم منذ تناول الرؤوس! الأخرى أن هذه الماكنات قد وُجِدت لأمر مختلف تماماً، إذ قيل أن هدفها الأساس هو نشر الأمن والسلام وعلى أيامنا تلك ما أكثر ما قيل!

فكّرت كثيراً قبل أن أكتب عن هذه الفترة من حياتنا كجزائريين، كيف يمكنني أن أكتب عن احتضار وطن لأستعيده من جديد ولكنني وجدتي أهتم بالتفاصيل التاريخية أكثر من أي شيء آخر، لذا قرّرت البدء بطريقة مغايرة تماماً، توقّفت عن التدقيق بالتواريخ، ثم فكّرت ماذا لو كانت "يمّة" هي التي تحكي القصة، لكانت حكّت بشكل أفضل مني تماماً، لسبب واحد فقط أن الأمهات كلما تحدثن خاطبن القلوب، وهذا ما سأحاول فعله سأنقل ما حدث كإنسان فقد وفُقد وأفتقد، كأَي إنسان فاقد للإنسانيته.

اعتذار

لا يجب لأحد غيري أن يحتملني وليس من حقي أن أفرض ذلك على أحد، لذا أنا مُتأسف، أنا جدا مُتأسف لأنني تعريت حتى رأيتم الهشاشة في العظم والندب في الروح واللوعة في القلب، أنا مُتأسف لأنني لم أستطع طول هذه الرواية أن أحمل لكم أي فرح ولو على سبيل المفاجأة أو الحبكة الإبداعية التي وجب أن تنتقل من أعلى للأسفل ومن أسفل لأعلى كما هي نوتات الموسيقى ولكنني هنا كنت أغوص للأسفل أكثر فأكثر حتى غرقت، لم تُنقذني خشبة الحظ الطافية على أعتاب الحياة ولا قشة الصدفة التي تبيلل قبل أن يصلها وعيي... لذلك كلّه أنا حقا مُتأسف.

يوسف

الفصل الأول

الحكواتي، ثمن الحكاية...

"إنَّ من يترفع عن أمور الدنيا التي تستخدمني أنت أمامها هو
أقوى بكثير منك"

ابن حزم

قبل الكارثة بألف عام أو يزيد... هكذا حكى لي جدي "ديهيا"
كل ليلة قبل النوم...

الحكاية الأولى

"في المرة التي قرر فيها الجواد أن يُفَلت لجامه المزين بخيوط الذهب ويترك مرقدَه المريح وعلفه الوفير، عانى الجوع والتعب ولكن بريق الطريق أنساه ألمه ليوم، ليومين، لشهر... في ليلته الأولى بعد المئة، وقف على حافة بحيرة، نظر لانعكاس وجهه ثم فكر "لا أحد يموت من الجوع وكثيرون يموتون من الذل" ثم نزل دمعُه غزيراً وساخناً، لم تبتلعه البحيرة كما فعلت مع نرسييس، بل فعلت أكثر من ذلك، تركته لحال سبيله وهو الذي خذله كل سبيل!".

لم يفهم معظم أهالي القرية الحكاية، علت وجوههم سحنة تعجب وغبابة، حتى أنهم لم يصفقوا ولم يُبدوا أية ردة فعل أو تجاوب لما سمعوه، لم تبدأ الحكاية ب "قال ناس زمان" ولم تنته بأي حكمة أو مثل من أقوال الأسلاف، هل يُعقل أن يكون الحكواتي قد أضع إرث الأسلاف، هل يُعقل ذلك؟! في هذه اللحظة الحرجة لم يكن من شيخ القرية سوى أن تدخل، إذ تظاهر أنه فهم كلام الحكواتي فوقف وصفق ثم فجأة تعالَى التصفيق من بعده ... وكأن الأهالي كانوا بانتظار إشارة الانطلاق منه لفعل ما هو مناسب لموقف غير مألوف كهذا... ولم يدرك أي منهم أن الزمن لم يُعد نفسه ولم يبق لناس زمان أي سطوة عليه أو ربما لم تكن لهم من الأساس وكان كل ما توارثه أهل القرية مجرد وهم فَج يسير بهم نحو الهاوية الأمانة التي ابتلعت كل الأسلاف بلا كلل ولا تردد، إنّه زمن التغيرات الكبرى، زمن

اللامتوقع واللامألوف.. زمن الحقيقة الأولى والأخيرة ربّما، زمنٌ
خارج دائرة الأسلاف !!!

الحكاية الثانية

"كان شغله الشاغل أن يطير، أراد أن يسير ما تحسُّه الطيور عندما تفرد أجنحتها وتحلق عاليا خفيفة من كل عبء، كغيمة تحملها الرياح، ثم تُنزلها بوقتها المناسب ومكانها المناسب مطراً أو برداً أو نُدفٍ ثلجٍ بهية البياض، أراد أن يرى الناس من أعلى كما تفعل الآلهة، ولكن دون أن يفعل مثلها فلا يحاسبهم ولا يشغل باله بأفعالهم فالأمر يتعلق به وحده، جرّب كل شيء ممكن، مرة صنع جناحين من الريش وألصقهما بالشمع ومرة استبدل الريش بسُعف النخل ومرة أخرى بقطع قماش حريرية مثبتة على عيدان خشبية، وكان كل مرة يكسر جزءاً من جسمه، مرة ساقه ومرة ذراعه، كما أن الجزء العلوي من فكّه قد تحطّم في المرة الأخيرة ولكن لا ألم كان قادراً أن يثنيه عن فكرته، كان حلمه أن يطير مهما كانت العواقب ومرة بينما كان على هضبة يفكر في طريقة ما تمكنه من ذلك مرّ به درويش جوال، اقترب منه مخاطباً: يا أخانا ما أهمّك؟! فرفع الفتى بصره ثم أجاب: إن أخبرتك فهل تساعدني؟ أجاب: لا يطلب العون إلا اثنان حائر أو جائر.

- حائر أيها العابر

- تفضل، ما الذي يحيرك؟

- حسناً، أريد أن أطيّر.

- أطرق الدرويش رأسه في الأرض لبرهة ثم قال: صل، وانصرف!!

تركه حائراً أكثر مما كان عليه مستغرباً ومستغرقاً في التفكير للصراحة لم يخطر هذا بباله يوماً، كيف يمكن للصلاة أن تكون

سبيله، وهو الذي لم يأبه يوما لا لصلاة ولا لغيرها من أمور الدّين
لابد أن هذا الدّرويش يخرف وحسب ثم أهمل بسرعة ما سمعه
وعاد ليُفكر بطريقة أكثر منطقية حتى وإن كان ما يُقدم على فعله
ليس بتلك المنطقية ...

في اليوم الموالي وُجد الفتى ميتا على سفح الجبل غارقا في دمه
ومغطى ببقايا قماش وريش وفكرة !! "
كان رد الفعل نفسه تقريبا، ولكن هذه المرة صفق كلُّ من
الشيخ والأهالي على نفس الوتيرة!

الحكاية الثالثة

"بعد أن رماه إخوته بالجُب، لم يكن يملك الفتى الصغير شيئاً غير الدعاء والحب اللأمشروط الذي كان يحمله في قلبه للجميع ولو كان بشراً عادياً مثلنا لكره إخوته وتمنى لو أنه يستطيع الخروج سريعاً من هذا البئر لينتقم، ولكنه كان مختلفاً فسامح ومضى، ظن الإخوة الذين يشبهوننا بطريقة ما أنهم انتهوا منه للأبد وسيخلو لهم وجه أبيهم ولكن هذا لم يكن وارداً ولا بشكل من الأشكال، فما كان منهم إلا أن دفعوا ثمن أوزارهم كاملة طويلة مدة غياب أحمهم، تمر السنون ولأن أمر الله بالغ لا محالة جعل اللقاء مرة ثانية ممكناً، ليجزي كلاً جزء عمله لكن هذه المرة كانت مختلفة تماماً عن آخر مرة، الفتى الصغير هو الآن العزيز، عزيز بين قومه، عزيز في قومه ولا يزال العزيز لدى أبيه وها هم الآن في مشهد مهيب ينحنون أمامه وقد تحققت رؤياه، وها هو العدل يُنصفه وينصره، قال الله تعالى: "إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين"¹.

في هذه اللحظة وثب إمام القرية غاضباً وقال: "تكلم فيم تفقهه، تحدث عن أساطيرك وتخاريفك ودع كلام الله وأنبياءه الكرام بعيداً عن قصصك المتخيلة، أنت لست أهلاً بالحديث عنهم"، وانصرف وهو يضرب كفا بكف "لا حول ولا قوة إلا بالله".. بقي الحكواتي صامتاً، ينتظر رد فعل شيخ القرية، ولكنه فاجأه إذ قال دون أن يلتفت نحوه وكأنه يوجه الحديث لشخص آخر:

1 - سورة يوسف الآية: 4.

"يبدو أن حكاياتك أصبحت مملة يا سي المختار". وانتظر منه جوابا ولكنه أثر الصمت، وراقب الأهالي وهم يغادرون بهدوء وحذر، فهز رأسه ومضى لمنزله محزوننا...

الحكاية الرابعة

"لزمنا غير بعيد اقترح ذئب لعبة على الأسد فوافق الأخير على مفضل... مرّ حمار فوجد الأسد مربوطا واستفسر عن السبب فشرح الأسد حيلة الذئب مع تأكده التام أن الحمار لن يفهمه ولكن لحاجة في نفسه تعاطى معه ولو أنه لم يكن مربوطا لما فعل.. بعد أخذ ورد وافق الأخير وفك رباطه... فالتفت له وقال: "الغابة لي يربطني فيها الذئب ويفكني فيها الحمار والله ما نقعد فيها".

لأول مرة علق الحكواتي على ما حكاها، وهذا لم يكن يوما من عاداته، كان يترك التعليق لأهالي القرية وينتشي بتفاعلهم مع ما يقول ولكنه منذ أن غير طريقته في اختيار الحكايات، قلّ تفاعلهم، إما لقلّة استيعابهم أو لأسباب أخرى لا يجملها طبعنا نظر للجمع قبالتة ثم قال كسؤال جانبي: "من حكم الغابة بعد الأسد؟!!"، في هذه اللحظة صمت الجميع وعلا وجوههم الاضطراب والخوف والقلق!

الحكاية الخامسة

"حسنا، يبدو أنني الليلة لن آتيكم بأي جديد ما دُتمت غير مستعدين لقبوله وتقبله، فقط سأقص حكايةً يعرفها الجميع من كان مهتما بسماعها مجدداً فمرحبا به، سأعيد لكم قصة "بقرة اليتامى" ثم رفع رأسه متصفحاً وجوههم وقد علاها الكثير من القبول والامتنان، ليسوا مُستعدين لأي شيء غير الذي ألفوه فلما يُقحمهم بأمر مماثل، لقد جنى عليهم إذ قرر فعل غير ذلك، هم كلهم يريدون أن يسمعوا ما يُريحهم ولو كان مكرراً ومحفوظاً عن ظهر قلب، شعارهم دائماً كان "اللي تعرفوا خير من اللي ما تعرفوش".

هلل الأهالي ممتنين "بوركت، بوركت" وباشر الحكواتي السرد.
"بقرة اليتامى لا تُباع ولا تُشترى أليس كذلك؟"، أوماً الجمع برؤوسهم موافقين، لكنها بيعت، زوجة الأب الماكرة أحلت بيعها وكاد اليتامى أن يموتوا جوعاً، أليس كذلك؟"، هذه المرة قاطعه شيخ القرية "لماذا تبدأ الحكاية من نهايتها أيها الحكواتي؟؟؟".
- "لأننا في نهايتها".

نظر الحاضرون لبعضهم البعض مُتعبجين ومتسائلين، إذ لم يفهم أيُّ منهم مقصد الحكواتي، وإن كانوا قد فقهوا قوله فهم لم يفقهوا دلالاته ومحلهم منه، غادر شيخ القبيلة غاضباً وتفرق جُلُّ الأهالي إلا بعض شباب القرية اليافعين من أصدقاء ابن الإمام والذين كانوا بحاجة لمعرفة القصة كاملة لا يهم كيف كانت بدايتها ولكن نهايتها هي كل ما أثار فضولهم، أبرز سؤال جال في مُخيلتهم

"لماذا قال الحكواتي أننا في نهايتها وأيّ نهاية يقصد"، ثم تقدم عبد الحق ابن الإمام ناحيته وسأله بأدب "هلا أتممت".

- "بكل سرور يا بني، إن هذه البقرة هي هدية الله لليتامى ضرعاها يدران الحليب والعسل المُصَفَى والماء العذب، هل فهِمْتُم لماذا لا تُباع ولا تُشْتَرى؟".

- "ليس القصد من سؤالنا، ولكن لماذا نحن في نهايتها؟".

- "هل نالكم شيء من خير هذه الأراضي التي يعمل فيها آباؤكم وقبلها أجدادكم كعبيد منذ أن وعت عيوننا وعيونكم وعيون من بعدكم إن استمررنا هكذا؟".

- "لكن هذه الأراضي ليست ملكنا".

- "ليست ملك أي كان، الله خالقها وبارئها ورازقكم، فلا يبلغكم من خيراتِها إلا الفتات... بقرتكم بيعت يا أبنائي، وبقرة اليتامى لا تُباع ولا تُشْتَرى".

الحكاية السادسة

هذه المرة قرر الحكواتي التوقف عن سرد الحكايا مادام كل ما يهيم الناس من حكاياته هو المتعة لا الحكمة، انزوى ببيته وقرر أن يدون كل ما يجول بخاطره وعقله من أفكار وحكايات لزمان غير هذا على الأرجح، لجيل قادم ربما سيتمكن من فهم كلماته على الوجه المطلوب جهز محبرته وريشته، مرر يديه الخشتين على الصحيفة صعودا ونزولا حتى تأكد أنها مناسبة تماما للكتابة، قرب الشمعة أكثر كي لا يُعيقه الظلام أو الخوف على وجه التحديد، تنفس بعمق وانكبّ يخطّ أولى كلماته، ينهي ما بدأه أبوه قبله، يُحرر ضميره من كل هذه الكلمات اللعينة التي يجب أن يلفظها خارجا مهما كلفه ذلك، ليس هذا بطوليا أبدا وإنما هو ضروري وحسب، كان يفرد الصحيفة تلو الأخرى مُبتسما كأنه يملك كل العالم بين يديه لم تستمر نشوته طويلا حتى سمع طرقا خفيفا، بسرعة دسّ كلّ أدواته، انتفض واقفا ثم سأل بصوت مرتعش "من....من الباب؟!"، أتاه الصوت خافتا "أنا عبد الحق، من فضلك افتح يا سيّي المختار"، تردد لبرهة ثم فتح الباب "ما الذي جاء بك في هذا الوقت؟".

- "حسنا لست لوحدي، معي تقريبا جُلّ شباب القرية، جننا راغبين في الاستماع لحكايتك، ليس لدينا ما نخسره".

- "أخشى أنني لم أعد أستطيع فعل هذا مجددا".

- "من فضلك، لا تردنا خائبين".

- "حسنا تفضلوا".

بداية، لم يُصدق السي المُختار أن هؤلاء الشباب قد جاؤوا من أجل حكاياته، خصوصا أن معهم عبد الحق ابن الإمام ولأنه يُدرك علاقة أبيه بشيخ القبيلة راوده بعض الشك ولكنه أثر أن يُصدقهم وأن لا يذهب أبعد من ذلك في التفكير، عبروا صحن الدار منه إلى الغرفة في حذر شديد ثم اتخذ كل منهم مكانا مُنتظرين أن يشرع الحكواتي بالحديث وماهي إلا لحظات حتى أقبل يحمل عشر حبات من الحصى، أخرج المحبرة والريشة وكتب على كل واحدة حرفا ثم أعطى كل واحد منهم حصى صغيرة، اعتدل في جلسته وقال: هذه مُجرد حكايات أما الحقيقة فمهما وافقت الحكايا إلا أنها تظل في علم الرب، قد يجد المرء الإجابة في تجميع حصى وقد يجد سؤالا مُهمًا آخر يدفعه للمزيد من البحث والتساؤل، وكلما سعى المخلوق لإخفاء حقيقة الخالق، وافق الخالق الحكايا وأيدها، ثم نظر بوجه عبد الحق الذي بدأ وجهه يمتقع وعيناه تبرزان، هذا ليس من الحرام في شيء، أليس كذلك؟".

- "أظن أنك يا السي المُختار ذهبت بعيدا في الاعتزاز بحكاياك، ما أعتقده أن الحكايا تبقى حكايا للبهجة والمتعة والترويح عن النفس، هذا ما كانت عليه وما ستكون عليه دائما".

- ما هو حرفك؟

- تأمل حبة الحصى في كف يده "إنه حرف الراء"، ثم نظر الكلّ لحبات الحصى وكانت الحروف كالتالي: "ألف، كاف، لام، تاء، نون، ياء، شين، جيم، راء وتاء".

- لا معنى للحرف وهو مُنفرد وهو تماماً ما يجب أن تفهموه قبل أن تتعمقوا في الأمر أكثر.

- "لا أعتقد أن الأمر مُعقد لهذا الحد يا السي المُختار" قال ابن الخباز.

- "إذن يبدو أنك تضيع وقتك هنا وحسب".

- صاح عبد الحق "أكلتني شجرة"، لم يُعره أيُّ منهم أي اهتمام إلا الحكواتي الذي تعمد تجاهله، بينما واصل ابن الخباز:

- "فقط أردت تبينُ بعض الأمور".

- "مثلاً؟"

- "حديثك عن بقرة اليتامى أحيا فيّ أسئلة لا تهدأ، لماذا قلت أن الأرض ليست لأحد، الأرض أرض الله".

- "لأنها كذلك، من خلق الأرض ومن عليها؟".

- هنا تدخل شاب آخر: "هل تسمح لي؟".

- "نعم تفضل بني".

- "هلا اكتفينا بالحكايا، جميعنا نعرف أن الأرض لله البارئ ونعلم

أن أجدادنا وآباءنا ليسوا أكثر من معتوهين خائفين ومغلوبين على

أمرهم، وأننا مهما فعلنا فلن نجني إلا الخراب على أنفسنا وقريتنا

وآبائنا، لذا فلهتم بالحكايا اللعينة أو ليذهب كلُّ منَّا لحال

سبيله".

- نظر عبد الحق إلى صالح -وهو ابن أحد الحطايين الفقراء-

برهة ثم أوما برأسه موافقا غير أن السي المختار أردف: "سترتُّ عن

أبيك خشباً لا يبني بيتا ولا يُشعل ناراً ولا يُعين شيخاً".

- "ما الذي تقصده؟".

- ستكون خطابا سيئا.
- ومن قال أنني أريد أن أكون خطابا؟.
- وماذا ستكون غير ذلك؟؟.
- !!!
- كُن حكواتيا ولو على سبيل التغيير .
- ضحك الجميع باستثناء صالح الذي همّ بالمُغادرة وقد تحول وجهه للون الأحمر وقبل أن يُكمل طريقه أضاف الحكواتي:
- "احذر أن تصنع هراوات بحُجة أن تحمي القرية من قُطاع الطرق".
- "حكاياتك كافية لتولي المهمة على ما يبدو".
- صفق الباب بقوة خلفه، لكن السي المختار لم يُعر ذلك اهتماما، كان مُتأكدا تماما أنه سينضم لهم في وقت قريب.
- حسنا، أريد أن أحكي لكم عن "براقش"، كما تعلمون هناك العديد من الروايات ولكنني أحبذ دائما أن أتمعن في إعطاء النصيب الأكبر للحدث الذي أراه بالغ الأهمية على حسب رؤيتي المتواضعة يا أبنائي، "براقش" لم تكن إلا كلبة مُطبعة ووفية أعزكم الله وقد دفع الجميع ثمن وفائها الكبير".
- يبدو أننا سنتحدث عن الوفاء لا عن "براقش" عبد الحق مقاطعا.
- لا بل عن "براقش"، ليست كل الكلاب وفية كما يعتقد الجميع ما دُمت توفر الأكل والمهجع فهي كذلك، الكلاب التي يراها الجميع ضالة هي الكلاب الوفية حقا، لأنها وفية للطبيعة التي خُلقت عليها قد نراها مؤذية ومخيفة، حسنا ستبقى كذلك مادامت لا تريد أن

تكون أليفة ووفية لإنسان واحد قد يُضحى بها أولاً في سبيل سلامة القطيع.

- ابدأ من فضلك يا السي المختار، سيبدأ أبي بالبحث عني قريباً إنه موعد صلاة القيام.

- ولكنني بدأت فعلاً ألم ينتبه أي منكم لذلك، أنا أحكي، يقول المثل "جنت على نفسها براقش" وأنت يا بُني إن استمرت بالتعجل فستجني على نفسك، من لا يعرف قصة براقش في هذه القرية رواها أبي وقبله جدي وكل الناس تحفظها عن ظهر قلب، كل الأمهات يحكينها لأطفالهن، فما همك أن تسمعها مجدداً وكأن حدثاً ما سيتغير، حسنا لنفعلها كما دائماً، في قرية صغيرة على سفح الجبل الكبير عاش السُّكان حياة آمنة ومُستقرة وكان للكلية "براقش" جميل الأثر في ذلك، كانت تحرس القرية وتحذر أهلها من أي هجوم مُحتمل، كما وعُرفت بوفائها الشديد لصاحبها وتعلقها به، مرة من المرات استشعرت خطراً مُحققاً فما كان منها إلا أن استمرت بالنباح إلى أن تأكد كل من بالقرية بهول ما يُحرق بهم من شر لأنهم لم يروا "براقش" على هذا الكم من الهلع أبداً، أسرعوا مُنهبين بعضهم البعض واتخذوا المغارة مخبأً لهم ريثما يُغادر الغرباء، مرّ كل شيء على ما يُرام وهمّ القطاع بالمغادرة وبينما هم عند مخرج القرية، بدأت براقش بالنباح ثانياً باحثة عن صاحبها فتفطن المُغيرون لذلك وحاصروا المكان كله فقتلوا كل الأهالي بمن فيهم "براقش" ومنه جاء استعمال المثل "جنت على نفسها براقش".

- يعني أنك تُعدُّ براقش "من الأهالي بما أنك عطفتها عليهم؟ سأل عبد الحق بينما كان الآخرون لا يزالون تحت تأثير كلمات الحكواتي.

- "يبدو أنني أضعت ليلتي هذه سدى، انتهت الحكاية بإمكانكم الانصراف" قال الحكواتي مُمتعضاً.

- بينما هم الآخرون بالانصراف سأل عبد الحق مُجدداً "لم أفهم ما أردت إيصاله باختيارك لهذه الحكاية؟".

- أُلستُ حكواتياً بئساً، أردد الحكايا وحسب، فقط فعلت ما أجيدته، حكيت.

- لماذا تُعيب على براقش وفاءها؟

- ليس الوفاء ما أعيب بل المبالغة فيه حتى البله، هذا ما أودى بحياة قرية بأكملها، لأنه نزل من الدرجة النبيلة للقيم وتحول لغبائٍ مُطلق، هذا ليس وفاء يا بُني، و"براقش" تُعد على وقتنا أفضل من الأهالي حتى، لأن هنالك من هو أكثر وفاء منها، وفيّ لما وجده ولما جُبل عليه، وفيّ لعاداته، وفيّ للأحكام الجاهزة وللتصنيفات ولكل ما هو متوارث ومُلقن وليس بالضرورة أصيل... هذا النوع من الوفاء مُضرٌّ يا بني، إن كنت تؤمن أن الله كرمك بعقل فاعمله هذا كل المطلوب منك، مُسلمات الأجداد أكبر خُدعة في هذه القرية البائسة ويبدو أنها ستتوارث إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والآن لو سمحتم طابت ليلتكم فكروا جيداً قبل أن يفوت الأوان وتصبحوا كمن سبقوكم مُجرد حطابين بئسين في أرض أوهْموكم أنها ليست لكم، لا تجنوا على أنفسكم كما فعلت "براقش".

الحكاية السابعة

"سكن الضير على طرف النهر، ولم يحدث يوماً أن أضع طريقه للقريّة، وبدل من أن يسعى الناس في حاجته كان هو من يسعى في قضاء حوائجهم، مُنحوا نعمة البصر بينما تمتع بالبصيرة، ولكن الأهالي رغم ذلك اهتموه بتسخير الجن في خدمتهم ولم يكن مهتماً جداً ليدحض هذه الفكرة أو يُدافع عن نفسه، كل ما كان ذا أهمية هو أن يجنبهم الهلاك، وفي عز هدوء النهر كان يمكنه أن يعرف أنه ليس كما يبدو أبداً فمهرع لتحذيرهم، يمشي صارخاً "إنه يهدر... سيُغرق كل شيء... إنه يهدر، سيُغرق كل شيء" ولسبب ما كان الجميع يثقون به فيلتجئون للهضبة ويُراقبون تدفقه الكاسح غير مصدقين لما يحدث...

كانت المرة الأخيرة، كل الأهالي على الهضبة، يُراقبونه يستبق الخطى بعدما تأكد من تحذيرهم جميعاً هرباً من بطش هذا النهر، ولا أحد يمد يده أو حتى يصف الطريق، يتلعه السيل بينما يصرخ: "إنّما المكان بالمكين، إنّما المكان بالمكين..."

الحكاية الثامنة

"قيل أن الغراب يعرف الكثير، إذ بإمكانه أن ينطق ويتدبر قوته ويدفن ويبني عشًا مُريحًا ودافئًا من ريش المُهملين من بني جلدته دونما أي شفقة أو إدراك، يعرف الغراب كيف يعيش تماما دون أن يُخالجه الندم بخصوص أيامه الماضية كما لا ينتظر الآتي منها بخوف أو توجس، إنه كائن سريع التنفيذ، ليس بوسعه أن يمنحك الكثير من الوقت فبمُجرد أن يتلمس عُنقك بإحدى قائمته ولا يجد أي إشارة للنبض حتى يشرع بالحفر بداية ينتف ريشك الذي سيحتاجه لاحقا، ثم يواريك التراب ويردمك تماما، لا يبكي.. لا ينطق.. فقط يدفن، هذا هو الغراب"

- أيها الحكواتي، ألا تظن أنك أعمت في الهجاء!!

- بل أعمتُ في المدح، وأول ما مدحت مدحتُ غرابا، وسأفعل هذا مرارا حتى يستحي بنو جلدتي ويعلموني كيف أدفن الحقيقة يوميا دون أن أُصاب بلوثة عقل، هذا ما سأفعله مرارا، هذا ما سأفعله مرارا...

- يبدو أن المسكين فقد عقله.

- أظنه سيفقد حياته، أجب عبد الحق ودعاهم للانصراف.

الحكاية التاسعة

تُبدل الأفعى جلدها كلّما اهترأ ويغير النهر مجراه كلما اعترض
سبيله ما هو أقوى، وتُبدل الأرملة الأسود ريثما يُسعفها النسيان
وحتى أم عامر¹ في الخلاء لا تزال على العهد، تبقر بطن كل من
تستجير به فيحميها، وسُبحان المُغير الذي لا يتغير... فما بالكم لا
تُغيرون ولا تتغيرون؟!

وقبل أن يصرخوا به أو يرموه، "هذا ما قاله وحش الغابة...
هذا ما قاله وحش الغابة" وتركهم في دهشتهم يتساءلون...

1 - العرب يسمون الضبعة أم عامر لحكايتها المعروفة مع الأعرابي.

الحكاية العاشرة والأخيرة

"أوصد النافذة الحديدية بحذر شديد خشية أن يُوقظها مشى على أطراف أصابعه باتجاهها، عدّل الغطاء، مسح على شعرها بحنو ورأفة، وضع أصغر أصابعه على الشمعة حتى اختفت شعلة النور الصغيرة وانصرف مغلقا الباب بحذر كذلك دسّت رأسها بالوسادة وبكت اللونجا بحرقّةٍ وقهر".

عدل السي المختار جلسته، كان متأكدا أن ما سيقوله الليلة سيكون القطرة التي ستفيض الكأس ولكن هذا لم يجعله يتردد أو يتوانى، لم يُطل التفكير، وضع اللفافة الجلدية جانبا وقال: "هل الغول خَيْر؟ لا أحد يعلم، هل يعتني حقا باللونجا أم أنه يُعدها لأمر أكبر كذلك لا أحد يعلم، الأسطورة قالت ما يتوجب ولكن الحقيقة أمر مختلف تماما!! فلحد الساعة الغول ودود وكريم وشهم، غدا لا أحد يعلم ما الذي يمكن أن يحدث وحدها اللونجا كانت تعلم ولولا هذا لما بللت وسادتها بالدمع كل ليلة" في هذه اللحظة اشْرأبت الأعناق كلها ناح شيخ القبيلة الذي بدأ بدوره يبحث عن جواب مقنع ولكنه لما لاحظ اهتمام الجمع برأيه، كان لا بد أن يُعلق على ما سمعه، فاستدار ناح الحكواتي ورمقه بنظرة تنم عن عدم الارتياح ثم قال: "سمعت هذه الحكاية من والدك الله يرحمه وأنا طفل صغير، كانت حكاية ممتعة وآسرة حتى أنني كنت أخاف من الغول وكانت أمي تخيفني به كلما أغضبتها، أما الآن وأنا أسمعها منك فهي مختلفة تماما، هل أنت تتعمد هذا؟؟ هل تغير حكايا الأسلاف؟؟ ولكن مع هذا فهذه الطريقة الجديدة ممتعة إذ

أن الفضول يتناوبي بشأن التتمة"، اكتفى الحكواتي بالصمت بينما همّ الجمع بالانصراف.

عندما بدأ الحكواتي بسرد حكاية اللونجا والغول لليلة الأولى تابعه أهل القرية بتركيز وتمعنة كبيرين خصوصاً بعد تعليق شيخ القرية، والأكيد أن الكثيرين لم يكونوا ليعبؤوا بالحكاية وإنما تركز جلّ اهتمامهم على مراقبة الأحداث والثرثرة بها لاحقاً، كل ليلة يتجمهرون بالمقهي منتظرين سي المختار الحكواتي، ما إن يبدأ حتى تتسع أحداقهم وتتفتح آذانهم ويطبق الهدوء التام على المكان....

انتظر أهل القرية نهاية القصة بشغف وتحرق شديدين أرادوا معرفة السبب الذي يجعل الغول يحبس اللونجا في قلعته ويولمها كل هذا الاهتمام، في الليلة العاشرة والتي من المفروض أن تكون الليلة الأخيرة ليعرفوا تتمة الحكاية، لم يأت السي المختار ولم تنته الحكاية أبداً، تساءل الجميع عن سبب غيابه ولكن لم يكلف أي منهم نفسه عناء الاطمئنان على الحكواتي أو معرفة سبب غيابه حتى!!

هل كانت الحكاية بلا معنى؟ هل كان فضولهم لا يتعدى فضول طفل بلعبة جديدة؟؟ أيعقل أن لا يكون أي واحد منهم قد فقه الحقيقة المُخبأة في كل كلمة من الحكايا أم أنهم ادعوا عدم الفهم وحسب!!!... إذا كان عالم الحكواتي هو الكلمة والحكايا بحلوها ومرها وماضيها الساحر ومستقبلها المجهول والمتوقع... إذا كان الحكواتي إنساناً يعرف ثمن الحكايا ويحمل هم معرفة الحقيقة وحده فلا بدّ أنه عاش في الزمن الخطأ... أو على الأرجح في المكان الخطأ لنكون أكثر دقة!!

في صباح ذلك اليوم شديد البرودة، انتشر خبر مفاده أن السي المختار وُجد مقتولا بالغاية، فبينما كان يحتطب انقضَّ عليه وحش ولقى حتفه، وقد أرجحوا السبب إلى أنه قطع شجرة ذات أوراق خضراء هبية وثمار وفيرة وبذلك فقد خالف قانون الغاب الذي وضعه الأسلاف، وذهب البعض للقول بأن الوحش الذي تعايشوا معه جيلا بعد الآخر من دون أن يتعرض لهم أو يؤذيهم ما كان إلا الغول في الحكاية، وأن الحكواتي كان يكذب ويهترق... انتشرت كثير من الشائعات كالنار في الهشيم وكلها اتفقت على أمر واحد، الوحش مسالم والحكواتي كان يكذب!!

مع حلول الليل، اجتمع رجال القرية عند بيت السي المختار يتقدمهم شيخ القرية الذي طرق الباب الخشبي، طرقة اثنتان ثلاث... تعالى الطرق وسرت غمغمة قلقة بين الرجال، فالتفت إليهم وأشار عليهم بالصمت، قال قائل: لنكسر الباب وحسب فرمقه بنظرة تنم عن خيبة الأمل أتبعها بزفرة طويلة دون أن ينبس ببنت شفة، فجأة فُتح الباب وأنهى كل الجدل القائم بينهم، أطلت فتاة صغيرة بعمر العاشرة على الأكثر وقالت بصوت ملائكي خجول: "قال الأسلاف أن بيتا ليس به رجل، هو بيت حُرمة... لا يأتيه طارق إلا بوضح النهار وغير ذلك فإن الطارق يريد بأهل البيت الشر، يا أهل البيت لا تفتحوا ولا تجيبوا وإن استمر الطرق على حاله، ليُفتح الباب بما يسمح لطفل غير بالغ بالمرور وردوهم عنكم بقوة الأسلاف... إن لم يكونوا منتهين فالله يكفيكم شرهم" ثم ابتلعها الظلام مرة أخرى وأوصد الباب... دبَّ رُعب في قلوب الجماعة ثم انصرفوا وجوههم شاحبة كأنهم أبصروا شبحا لتوهم!!

بعد صلاة الفجر، استأذن شيخ القرية وقال أنه يريد أن يتحدث بأمر بالغ الأهمية مستأذنا من الإمام عمر الذي وافق بسرور، اعتلى المنبر الخشبي تنحنح قليلا حتى يتخلص من البحة في صوته وقال: "إن الأسلاف يا إخواني قد حذرونا من زنديق يخرج من أصلابنا ويجلب الهلاك للقرية، وقد تركوا مهمة التخلص منه لرجال البلاد والصالحين، كما أن جدتي كانت قد حصنت قريتنا بأن وضعت تعويذة أعدها لها الإمام أحمد أبو إمامنا عمر رحمه الله وقد وضعتها عند مداخل ومخارج القرية حتى تحمينا من شرور الخائنين والمنافقين، فينقلب شهرهم عليهم قبل أن يبلغنا شيء منه... وها هي بركتها وبركة الأسلاف تنقذنا مجددا"، ثم نزل من المنبر ونظرات التأييد وهزّ الرؤوس والابتسامات الراضية كلها توافقه في كلامه موافقة تامة، لولا أن استوقفه الشاب عبد الحق ابن الإمام الذي غادرهم صغيرا إلى الحجاز وها هو يرجع إليهم شابا متعلما وقد نهل من العلوم ما يجعله حرا بإبداء رأيه ولو أنه لا يزال شابا، والشباب في القرية غير مطالبين بإبداء رأيهم كما جرت العادة دائما فهذا من تخصص الشيوخ على فرض أنهم أكثر حكمة ومعرفة، قال السي محند -شيخ القرية-: "تحدث يا بني، نسمعك"، تقدم الشاب واتخذ مكانا يسمح له برؤية الجميع وإيصال صوته والأهم فكرته إن كان ذلك ممكنا أكيد، اعتدل عبد الحق في وقفته حك حاجبه الأيمن ثم تلى: "هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون"1، أما بعد الصلاة على النبي المصطفى فإن ما قاله السي محند للتو لا يتعدى كونه كلاما عاميا لا يرقى

1 - سورة الزمر الآية 09.

لأن يعتلي منبرا ويخطب به أما الأهم من هذا كله فأني أود أن أطرح سؤالاً بسيطاً عليكم جميعاً يا إخوتي: من هم الأسلاف؟؟ أتعلمون أن لا أحد يعرفهم غيرنا، خارج أسوار هذه القرية لا أحد يعرفهم ولا أحد يعرف قوانينهم المقدسة التي نسير بها منذ أن رأيت أعيننا النور وللصراحة فأنا أيضا لا أعرفهم؟؟، ما الذي نحن بصدد توريثه للأجيال القادمة؟؟ إنه العبث وإن كانت لعنتهم هي التي حلت بالحكواتي كما تقولون فأنا أكفر بقوانينهم كلها ولتشملي لعنتهم إن كان لها من وجود والسلام عليكم!!

زمر السبي محند "ستري بأم عينيك وستندم على كل ما قلته ظننتك أكثر حكمة ولكن يبدو أن العلوم أفسدتك"، ثم انصرف الجميع تملكهم الحيرة والخوف والذعر مما قد يحدث.

في الصباح استيقظ الأهالي وقد سرى بينهم خبر غريب عن احتراق بيت الحكواتي بأكمله وقد تحول إلى رماد... قالوا أن لعنة الأسلاف أصابته، ولكن العجيب بالأمر أنهم لم يجدوا أية جثث، رماد وتراب لا غير... اطمأن الناس لما حدث بطريقة ما واتضح لهم أن كلام عبد الحق لم يكن سوى قلة فهم وعجرفة لا غير، تحدث الناس ليوم، ليومين، لشهر إلى أن نسوا الأمر تماما كأنه لم يكن يوما، ولكن للحكايا سطوتها، هي لا تموت بمجرد أن نتخلص من الراوي، أو نحرق نصه، الحكايا تستمر عبر الزمن تتناقلها الألسن وتحفظها القلوب، تزيد أحداثها أحيانا وأحيانا أخرى تنقص ولكن جوهرها لا يتغير ولا يتبدل الحكايا دائمة خالدة، يتوارثها الناس كما يرثون لون البشرة والشعر والعيون من الأجداد وإن لم تظهر واختارت أن تتنحى لبعض الوقت فإن قدرا ما سيجعلها تظهر من

جديد في الوقت المناسب ومع الراوي المناسب أيضا... الحكايا أبدا لا تموت.... ماذا لو أن الحكواتي شاهد أوجاع الجلد المحترق الكلمات التي التهمت النيران.. زفرات الحروف... هروب الشخصوس... خراب الأماكن... عبثية الأزمنة... والأهم من هذا كله تساوي الحق والباطل في لحظة الاحتراق التي بدت أزلية ولا نهائية، ماذا كان موقفه؟! هل حاول إنقاذها أم أنه استسلم، لربما أن يقينه طمأنه فكلمها سُبعت مجددا ولو من رحم رماد منطفئ لا يحمل أي حياة... وحدها الحكايا تعرف كيف تولد من جديد وتتوهج في القلوب مهما كانت قاحلة وجدباء إذ أن لكل حكاية وقت للمجد والأبدية، هكذا كان لسانه يقينه يُعزيه ويُجنبه موتا آخر أكثر قسوة وألما .

عاد عبد الحق لتفقد أنقاض بيت الحكواتي ربما للمرة العاشرة، يتفحصه كما كل مرة غير مصدق لما حدث، بينما لم يجرؤ أي من الأهالي الاقتراب خوفا من لعنة ما قد تُلحقهم به لمح بعضا من بقايا الجلد غير المحترق، انحنى والتقطه... شُخص بصره لهول ما قرأ: "عندما لفظ الأب أنفاسه، كان دمه ساخنا تماما كالدموع في محاجر صغاره المنتحبين هلعاً، ثم جمُد نظره في الفراغ للحظة بدت وكأنها أبدية... وانطفأ كل شيء".

بطريقة ما تذكر الليلة في بيت الحكواتي، أدرك تماما ما الذي كان يقصده حين قال أن لا قيمة للحرف مُنفرداً، وأنهم ليفهموا هذا كله لا بد أن يتعمقوا فيه أكثر وأكثر، تذكر الجملة "أكلتني شجرة"، ثم هز رأسه غير مصدقٍ لما خُص إليه... دار حول نفسه دورة كاملة كمن يكتشف المكان لأول مرة، ثم صرخ بملء يقينه

"الوحش ليس في الغابة كما ظن الأسلاف... الوحش فينا!! الوحش
نحن!!"

الفصل الثاني

نجمة... الباب الموارد للذكرى

"-مالا يمكن علاجه لابد من تحمله"

- مثل برتغالي -

أضع ورقة خس كبيرة وطازجة في حوض التينة وأنتظر أن تخرج من مخبئها، أجلس على الحافة العريضة المزلجة وأراقب لا يطول الأمر كثيرا حتى تُقبل "نجمة" وبإقبالها البطيء ذلك تهجم علي الذكريات دفعة واحدة، بلا رحمة ولا مراعاة... تمسك ورقة الخس وتبدأ بالتهامها، قضمة، قضمتان وكأنها بثغرها الصغير تقضم قطعاً من قلبي بشره كبير حتى أكاد أن أفنى، آه يا نجمة ما فعل بنا هذا الزمن! لم تزدادي إلا شراهة وحجماً... ولم أزد إلا سنا وهما... يقطع رنين الهاتف دفق الذكريات العارم فأنهض مسرعاً للصالة الفسيحة وأنا أدعو سرا أن لا أسمع خبراً سيئاً فلم أعد قادراً على تحمل المزيد، أرفع السماعة فينبعث صوت أختي ليلى مطمئناً وخافتاً وكأنها في الغرفة المجاورة وحسب: ما بك؟؟ أخبرتك مرارا أن تغير ذلك الهاتف وتستبدله بآخر يحتوي مجيباً ألياً، قلقت عليك، هل أنت بخير؟...

- قاطعتها: كيف حالك؟؟.

- بالله عليك ما الذي تفعله في ذلك البلد؟!

- لو أنني كنت يقظاً بما يكفي لكنت انتهيت أن هذا السؤال بالتحديد يجب أن أكون أنا من يطرحه لا ليلى "أليس بلدي؟! أردت أن أجيها ولكنني اكتفيت بقول "أنا بخير" لأغلق باب نقاش مقرف وعقيم خصوصاً مع عزيزتي ليلى، لو كان الوضع مناسباً للأسئلة المنطقية والحقيقية لكنت سألتك الأمر ذاته فتلك البلاد هي الغربية وهذا البلد هو الوطن... هو الأصل... هو الأم، وعلى فرض أننا أصبحنا شيعاً وأشتاتاً وجهلنا بعضنا وعلى بعضنا، فإن للوطن حرمة وللتراب حرمة وللسؤال حرمة كذلك! صرنا

نتعامل مع هذا البلد وكأنه مجذوم، كل يرمي بمسؤولية تطبيقه
للآخر، حتى المغلوبون على أمرهم والذين لا يملكون خيارا إلا
البقاء فيه، صاروا يتملصون من انتمائهم له وكأن الوطنية جريمة
يعاقب عليها القانون... أساسا أجهل سبب خوفهم، فلا الجريمة
أصبحت تستحق العقاب، ولا القانون أصبح محل تطبيق... ممّا
الخوف... حقيقة لا أعلم؟؟

- كيف حال أبي، أنس والجميع؟

- كلهم بخير، بإمكانك أن تتجاهل الجميع أخي، أخبرني أنت عن
الأوضاع، شاهدت الأخبار بالأمس، هناك إشاعات عن استقالة
الرئيس، هل يعقل هذا؟؟

- أي رئيس يا أختي، على العموم نعم، فكل شيء ممكن الآن بدأت
الأمر تهدأ على نحوٍ ما ولا أظن أن السيد لمين سيكون رجل
المرحلة القادمة، ليس من ذلك النوع من الناس على حد علمي
والله أعلم.

- أسألك بصفتك خبيرا بهذه الأمور، فأنا قلقة.

- لست خبيرا أختي، مهلا، مهلا، هل يريد أبي العودة؟؟!

- صمتت للحظة ثم أجهشت بالبكاء: يريد رؤيتكما، يقول أن أيامه
أصبحت معدودة، تدهورت صحته كثيرا يا عزيزي، ولكن ما عسانا
نفعل، هكذا أراد الله.

- لا أظن أن الله يريد أمورا مماثلة، ولكن يبدو أنها ستنجلي قريبا.

- كيف هي نجمة؟

- تكبر، تأكل بشرهة وتؤنسني.

- وجدتي؟

- حباها الله بنعمة النسيان، لا أظن أننا أحسن حالا منها.
- يبدو أن الجميع عادوا من العمل على رأيك سأترك الآن أخي لا
تنسى أن تغير الهاتف، اعطني بنفسك جيدا، سلام.
- سلام.

- في الأيام التي تكلمني بها ليلى، أحس بوحدة أكبر، أتذكر كل الأمور
المقرفة التي أحاول عبثا تناسيها وتجاهلها، أحيانا أكره أن أجيبها
ولكنني أخاف أن تقلق، أتواصل معها من باب الشفقة لا صلة
الدم ولو كنت أملك الخيار لما أجبتها أبدا أعود لحوض التينة
لأراقب نجمة ولكن يبدو أنها أيضا فضلت عزلتها وتركتني وحيدا
لذكرياتي المستعرة، لا شيء يجدي مع هاته الطاحونة عندما
تشتغل... فقط أستسلم لدورانها الأسر وهو يعود بي لأيام كان لي
فيها وطن وعائلة وحياة...

أنظر للباب يُفتح ويدخل عبد الله أخي مناديا: رحمة.. رحمة أين
أنت يا الجنية؟؟.

- ها هي رحمة تخرج من المطبخ وأثار اللبن على فمها، تحمل رغيف
خبز قد عضت منه قضمتان على الأرجح، ترتدي تنورة وردية
مزركشة بفراشات زرقاء وقميص قطني أبيض... وجنتاها ورديتان
وعيونها السوداء الواسعة تلمع فرحا بقدوم عبد الله ها هي تمر
من أمامي دون أن تحفل بي... أتراها لا تراني؟؟ لا أعتقد!!
- كنت أساعد يمة بإعداد الغداء... وتمد ذراعها نحو عبد الله
ليحملها.

- تساعديني في إعداده أم أكله، وغمرها وضحكا معا حتى سال
دمعها وسال دمعي، أرفع نظري للسماء وكأني أريد أن أصعد إليهما

الآن بهذه اللحظة بالذات فقد تعبت... يسيل الدمع حارا وغزيرا
ليذكرني أخيرا... أنت حي، أنت تتألم!!

- ها هما يتركانني مهملا غير آبهين بي ويدخلان غرفة جدتي أتبعهما
فتعترض فراشة جميلة طريقي لا أعرف من أين أتت في هذا
الشتاء القارس البرودة، أراقبها قليلا ثم أشيح بناظري عنها لن
يدوم جمالها لأكثر من أسبوعين، ما الذي يجعلني أستغرق في
وصف كائن سنتتهي حياته بحلول اليومين القادمين، أظن أنه لا
جدوى من هذا كله، أن ما يجعلني أرى كل شيء بميزان الوقت هو
الوقت نفسه يجعلني أترجح بين حاضره وماضيه، أمشي على
صراطه حافيا من أي منطلق أو وعي، هذه السطوة التي يملكها على
الأشياء كيف يجعلها تُزهر ثم تذبل ثم تندثر تماما كأنها لم تكن..
لم تتوقف الفراشة عن اللحاق بي واعتراض سبيلي، هل تريد مني
أمرا ما، ربما هي روح رحمة تقول لي لست منسيا يا عزيزي، كلنا هنا
معك، ما يدور بيني وبين عبد الله لن يبقى سرا للأبد، ستعرف كل
شيء بوقته المناسب ولكنني أعرف، هل أنا حقا أعرف؟؟؟

- تعود عبد الله أن يفاجئ رحمة، يُحضر لها أشياء لا تخطر على
بال، وكأنها ابنته وليست شقيقته الصغرى، لكن هذه المرة يبدو
أنه أدهشها كثيرا...

- ما الموجود بالصندوق، أخبرني، هيا أرجوك، مُلحة عليه بشقاوتها
المعتادة.

- هذا سر، أريد خدمة في المقابل ولك الصندوق.

- حسنا أطلب ما تريد.

- أولا: قبلة صغيرة.

- حسنا ها هي، وقبلته على خده.
- ثانيا يجب أن نتعلم أمرا سوياً، بعدها إن نجحت فلك الصندوق.
- ماذا ستفعل؟
- نظر إليها بحزم، سنصلي.
- هيا إذن لنبدأ الآن، أريد الصندوق، لطفلة في الرابعة من عمرها
- بدا الأمر مسليا جدا.

- جلس عبد الله على الزربية الصوفية¹ وهي تحفة من نسج جدتي ديهيا ثانياً ركبتيه، ثم نادى أمي، بينما لم تُرح رحمة عينها من على الصندوق وهي تتفرسه بفضول وشغف، أقبلت أمي هي الأخرى، مرت من أمامي، استطعت أن أشم رائحة زيت الزيتون والقرنفل المنبعثة من شعرها وسرى خدر لطيف بجسدي جعلني ولأول مرة أحمد الله لأنه منحني هذه الملكة... ملكة الخيال، كانت تحمل لباس صلاة صغير جدا وسجادة صغيرة، أعطتها لعبد الله وانصرفت، كانا متواطئين على ما يبدو وكانت رحمة تُراقب ما يحدث بقلق وترقب.

لم أكن ضد فكرة تعليم رحمة للصلاة في هذا الوقت، لكن إن كان رأيي مهما فإني أظن أن الصندوق كان الحافز الوحيد والأكبر بعدها لا أحد يعلم ما سيكون رأي رحمة عندما تكبر وتعي لوحدها كل هذه الأمور، لن يكون الصندوق الغامض موجودا دائما. لما شرع عبد الله بترديد دعاء الاستفتاح، كانت رحمة شاردة تماما، ربما كانت تُفكر بشكل اللعبة التي بداخل الصندوق نظر إليها وزم شفتيه معاتبا: هيا ردي ما قلته.

1- من ثراث الأمازيغ بمنطقة الشاوية.

"اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقني من خطاياي كما يُنقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم نقني من خطاياي بالماء والثلج والبرد" وابتسمت بفخر بينما بقي عبد الله مدهوشا!!

تساءلتُ ما نوع الخطايا التي يُمكن أن ترتكبها طفلة في الرابعة من العمر، خطؤها الوحيد هو توقيت قدمها لهذا العالم، ولكن رحيلها المبكر عنا جعل يقيني بعظمة الله وحكمته يزدادان، لا يُمكن أن يترك الله ملائكته معنا في زمن قدر كهذا كان انتقالها لرفقته رحمة ل "رحمة".

تشير الساعة بيدي لتمام الخامسة، علي أن أخرج لأشتري بعض الأغراض فالثلاجة فارغة تماما وليس لدي ما يُؤكل، لو عاد الأمر إلي فكأس شاي سيكون كافيا، لكن لا ذنب لجدي المسكينة في كل هذا، سأشتري من البقالة المجاورة وحسب إذ أن الوقت لن يكفيني إذا نزلت للسوق، إنه سجننا الكبير، أن تعيش في بيتك ولا تغادره بعد السابعة مساء وإلا لن تلوم إلا نفسك.. إذا لم تقتلك جماعة ستقتلك الأخرى وإذا لم تقتلك أي جماعة ستموت خوفا... الخلاصة أنه لا أسهل من أن تموت في أيامنا هذه ومع ذلك فالأمر لا يزال مستعصيا علي!! أرتدي معطفي، ألف الوشاح الصوفي حول عنقي، ثم أمدده قليلا ليلبغ أنفي، أتفقد حقيتي... نقود بطاقة هوية، أرقام هاتف كله هنا، أتفقد جدتي التي كعادتها تُحملك في الفراغ وتشتمني كلما فتحت الباب عليها ظنا منها أنني فرنسي يحتجزها، أغلق عليها الباب... أُحرق بالبيت الكبير وكأنني لن أعود إليه مرة أخرى وأمضي، الجو بارد جدا بالخارج، الحركة

كثيرة، الكل يعرف أن الوقت يداهمه، فتراهم يسرعون وكأننا في سباق مع الزمن... هل كان الوقت يداهمنا، حقيقة أم تُراه كان الموت.. أما الوقت فسُنته أن يمضي دون أن يُراعي أحدا، عتبنا كله على الموت الذي أصبح هو الآخر مرثيا، يختار قتلاه بكل دقة وتأنٍ حتى يجعل الأمر يبدو فوضويا بالنسبة لنا وهو أبدا ليس كذلك ينتقي قتلاه الجيدين ويتركنا نحن المنبوذين لنشهد على عظمته ونتأكد من هشاشتنا وفجاجتنا، هكذا هو الوضع هنا سيء ولا يُطاق...

توقفت سيارة شرطة أمامي، نزل رجل طويل، نحيف يرتدي بزة زرقاء ونظري لي باشمزاز: ما الذي تفعله هنا بهذا الوقت؟
- كم الساعة الآن؟.

- لكمني حتى فقدت توازني، ثم بزق بوجهي "أبله، من أجلك أنت وأمثالك من المستهترين تركت عائلتي ومنزلي وحياتي كلها، ثم تأتي حضرتك لتتذكري علي، ستري".

لم أفهم السبب الذي جعله يغضب لهذا الحد، أسوء شيء يُمكن أن يحدث لي هو أن أموت وهذا ليس بالأمر الجلل فحقا أنا لا أكثر، وضع أصفاد حديدية على معصبي ورماني بالمقعد الخلفي: "ولا كلمة وإلا أفرغت مسدسي بجمجمتك، أوغاد"

- انتظرت لما يزيد على الساعتين، تيبست نهايات أصابعي من كثرة الوقوف، لم يشغل تفكيري إلا جدتي، كيف ستكون بمفردها، أما نجمة فهي عادة تتدبر أمرها جيدا، أقبل شرطي وأشار لي بالتقدم، رميت رجلي اليمنى وكأنني أتعلم المشي للمرة الأولى محاولا التقدم نحوه وقد دب نمل خفيف بأوعيتي، "تبا كم هذا مُزعج".

- ما الذي دفعك للخروج بهذا الوقت؟
- لا أذكر، كنت جائعا على الأرجح.
- حسنا، أيها الشرطي.
- نعم سيدي.
- دعه يقضي الليلة هنا هذا آمن له.
- حاضر سيدي... ثم سحبني من ذراعي بعنف، تعثرت بالكرسي وسقطت نظارتي، فانفجروا ضاحكين، علق الشرطي الذي اعتقلني "أبله"، انحنيت لالتقاطها لكن على ما يبدو لم يكن لديه متسع من الوقت فجزني كشاة مُعدة للذبح، مشى بي على طول رواق ضيق، مُظلم وكلما توغلنا فيه أكثر انبعثت رائحة عفونة وعرق وبول... لقد كانت الزنزانة بجانب مرحاض، هنا فهمت كيف ستكون ليلتي هاته، فتح الزنزانة ودفعني إلى داخلها كأني مجذوم ثم أغلق الباب مُسرعا ناظرا إلي باحتقار: أبله وبصق على الأرض بغضب.
- لست أبله، أنا وحيد... بقي مذهولا للحظة من الزمن وكأنه لم يعد أجوبة مماثلة، كان ينتظر جوابا يعطيه الحق لضربي ولكنني لحظتها أحسست أننا متشابهين كثيرا فأعطيته جوابا يعزينا نحن الاثنين لقد كان هو الآخر وحيدا وربما جائعا جدا مثلي.
- حسنا، غدا ستخرج من هنا، احلق ذقنك على الأقل.
- إذن، هذه هي تهمتي!
- لا أدري، افعل ما تريد... وانصرف .
- ذقن طويلة، هذه هي تهمتي، ظننت أنني هنا بسبب أخي عبد الله، لكنني أخطأت التقدير، إنهم أقل حنكة من أن يعتقلوني لأجل

هذا، أنا حقا أبله، كانت الزنزانة عفنة وضيقة جدا شأنها شأن كل الزنزانات في العالم فلماذا قد أكون مُتدمرا، أقله أنني في أكثر الأماكن أمنا في المدينة وقد أكون مُخطئا تمام إذ ظننتُ أنني كذلك حقا، مكانٌ آمن في وطن غير آمن إنه مُجرد هراء تمددت على الاسمنت البارد وحدقت بالسقف... لا شيء يُثير الاهتمام، من الجيد أن يكون للمرء ما يُحدِث به نفسه، في اليوم الذي نفقد فيه القدرة على إجراء هذا النوع من الأحاديث بدواخلنا العميقة، سنكون مهملين جدا ووحيدين جدا... أنا هكذا الآن، لا أعرف ما الذي سأفعله غدا، لا حُطط من أجل المستقبل، ولكي لا يطول ليلى وأنا أبحلق بالسقف هربت للماضي الجميل... تجلت أمامي صورة "رحمة" على امتداد السقف، بضحكتها الطفولية البريئة أعود لليوم الأول الذي أهداها عبد الله "نجمة" لأنها تعلمت كيف تصلي، كانت الفرحة لا تسعها، حَمَلتها بين يديها طوال اليوم ونامت ليلتها وهي تحتضنها، أتذكر ذلك اليوم بكل تفاصيله، اليوم الذي علّم فيه عبد الله أخي رحمة أُسس الصلاة لأول مرة، ما كان يجهله أخي أن أبي كان قد سبقه لتعليمها وقد أبقيا الأمر سرا على الجميع بمن فيهم أمي، اعتقدنا أن رحمة فتاة خارقة الذكاء، كيف تتعلم كل هذا بيوم واحد وأعجبنا أن نصدق ذلك فلم ينكشف سرُّهما إلا بعدما غادرنا عبد الله بحثا عن الله كما اعتقد...

ليلى كانت الوحيدة بيننا التي تهتم بعمل أبي، شغفها بالمجوهرات جعلها تختار أن تترك الجامعة مُبكرا، حصلت على شهادة في المُحاسبة وباشرت عملها، كانت بداية تُساعده في الحسابات ثم تسلّمت العمل كاملا شيئا فشيئا حتى أحاطت بكل

تفاصيله ومُستلزماته فأقننته وأجادته، كنا عائلة شديدة التعلق بالحياة هذا ما غرسه السي الطاهر بنا، كان يُذكرنا بحربه لبلوغ كل هذا، نور الغرف في منزلنا الفسيح يبقى لساعات مُتأخرة من الليل، ليلى وأبي يعيدون ضبط الحسابات عبد الله مُنغمسا في كُتبه، يمة "دهيا" بهالتها النورانية تصلي وتُلق في الدعاء والحنونة أُمي، كلثوم الرائعة البسيطة تحيك لنا ملابس صوفية نستقبل بها الشتاء، كل ما كنا نرتديه من كتزات وقُفازات وجوارب كان من صنع يديها الحانيتين، كانت بهذا ترعانا أينما كنا حتى ونحن بعيدون عنها، أما أنا فكان الأرق هو ما يُبقيني مُستيقظا، أعرف تماما ما سأدرسه في محاضرة الغد كنتُ قد حفظته عن ظهر قلب وأُرف أسئلة طُلابي أعرف كذلك حدود إجاباتي وحدود حريتي كذلك، أعرف هذا كله وهذه كانت طقوس الليل في بيتنا، بيت يحوي عشر عُرف كاملة، الطابق العلوي كان لعبد الله بناه أبي بنية تزويجه، كان سُكان المنطقة يتخذون من بيتنا معلما كلما دلّوا شخصا يكون نقطة المرجع "الدار الكبيرة" أو "دار الصياغ"¹، وكان هذا مدعاة للتفاخر لكل من ليلى وأمي بينما كانت جدتي تُذكرهما بنقطة البداية، دائما ما تعود بهم للأصل، تذكرهم بأن ولدها "الطاهر" بدأ بعشر قطع من الذهب كان كل ما تبقى لها من جرة كاملة ورثتها عن أمها، وانتهى به الأمر بثلاث محلات للمجوهرات: "عشر لويزات وليدي دار بهم التاويل، بقينا لأكثر من سنة لا نأكل إلا الخبز والحليب ولكنه ما إن انطلق حتى عوضنا عن هذا كله ابني المُثابر".

1-الصياغ: المُجوهراتي

عبد الله ليس الشخص المناسب لهكذا حوار، أعرفه جيدا لم يكن ليتخلى عن كل كتبه الثمينة لولا أنه على وشك الغرق إنه يتخلص من كل حمولة زائدة قد تودي بعقله وتجعله يلقي حتفه... رمى كل تلك الحزم، كتب نيته يعلوها "هكذا تحدث زرداشت"، بجانبه كتاب ضخيم أستطيع أن أقدر عدد صفحاته بالألفين أو أكثر، أوراقه مصفرة وبلا غلاف، ولكنه بدا مهما جدا، ثم كتاب آخر عنوانه "عمر بن الخطاب" للعقاد وتوالت العناوين ثقيلة ومقلقة (أصول الرياضيات، المنطق والمعرفة شروط النهضة...) ثم صاح بأمي التي كانت تُعيد ترتيب ما يرميه ظناً منها أنه يُنظف عُرفته "ارم هذه القمامة"، لحظتها عرفتُ شكل القادم من الأيام وهذا عبد الله بدأت معاناته وهبت العواصف تُريد سلبه كل ما جاهد ليكونه، تمنيتُ لو سد أذنيه وتخطى العاصفة بكل اليقين الذي بذر زرعه أبي سنة بعد سنة حتى ظن أنه استأصل وتجذر وما من عاصفة مهما كانت عاصفة أن تقتلعه أو تهزه حتى...

لم تعرف أمي ما الذي يمكن أن تفعله بكل تلك الكتب ولم تستطع أن تهديها لأي كان فكل واحد منها هو جريمة أو بالأحرى دليل لجريمة، تخلى أخي عن كل تلك الكتب، خذل كل الشخص، كدت أراهم متجمعين في فئائنا وعلى اتساعه لم يأخذ كل منهم إلا زليجة يقف عليها بينما قد يكون شغل كتابا كاملا دون أن يُزاحمه أحد... بدت وجوههم متجهمة ومفجوعة كانوا مطأطي الرؤوس من ثقل الخيبة ومرارتها، سمعتهم يتهامسون "ما الذي ارتكبناه ليتخلى عنا"، ولكن ونحن أيضا بعدها بوقت قصير سألنا ذات الأمر ولا نزال لم نتلق أي إجابات ممكنة، كل ما استطاعته أمي

هو البكاء، حدسها يؤكد لها أنه سيتخلى عن الكثير وأنها البداية وحسب، تُحدق بي: يوسف، هل أضعها بغُرفتكَ؟

- لا مُشكلة لدي.

- تتقدم نحوي، تُعانقني وتبكي حتى يُسمع نشيجها: يا ربي رحمتك يا رب.

- لا أفهم سبب بكائها تحديداً، ولكن كل ما استطعتُ المساعدة به أن نقلت كل تلك الكتب لغرفتي وكان هذا أقصى ما يُمكنني فعله.

الليلة التي سبقت مغادرة أخي للمنزل كانت عادية جداً، لم يكن هنالك ما يثير القلق، غير هدوء عبد الله غير الاعتيادي تناولنا العشاء سوياً، كما أن أبي طرح عليه فكرة الزواج لأول مرة، غير أخي الموضوع واستمر كل شيء على ما يُرام في الصباح الموالي، كل شيء كما يجب أن يكون، أبي يتوضأ بمعية رحمة عند التينة، أمي مشغولة بتحضير وجبة الفطور، ليلى لا تزال تتلملم في فراشها رغم محاولات أمي المتكررة لإيقاظها... ككل صباح... جدتي جالسة إلى المائدة ترتشف قهوتها وتدندن بأغنية أمازيغية... لا شيء يُذكر حتى فتح عبد الله باب الغرفة يحمل رزمة كتب بيده اليمنى وحقيبة بيده اليسرى، وهو ما أثار فضول أبي فسأله: إلى أين؟! لم يُجب أخي... أعاد أبي طرح السؤال وكذلك صمت أخي، أوماً برأسه لرحمة بأن تكف عن صب الماء، وضعت سطل الماء جانبا وركضت ناح أمي، كانت أول من استشعر قدوم العاصفة، انتصب أبي واقفا واتجه ناح أخي: كبرت بما يكفي لئلا تجيب.

- رد عبد الله: الوضع لا يُطاق...

- أممم، وما العمل؟!!!

- لا شيء... أرض الله واسعة، وأنت علمتني هذا.
- متى كان هذا... أصبحت ذاكرتي ضعيفة على ما يبدو؟
- بسم الله الرحمن الرحيم "ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مُرَاغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما" ¹
- حسنا، وإلى أين هجرتك؟
- إلى الله .
- متيقن أنت يا بني؟
- ما من شيء يدعوني للتردد!!
- ...

غردت أول الطيور التي رعتها أمي خارج السرب، هاجرت قبل حلول موعد هجرتها الطبيعي، بحثا عن شيء ما لم يكن موجودا بيننا أو فينا، بحثا عن الحرية، عن الاستقرار مثلا والاحتمال الأرجح بحثا عن الله!! بالنسبة لي إن كان علي أن أبدي وجهة نظري فقد كنت أرى الله أينما استدرت في منزلنا... تسبيح جدتي طوال اليوم، خدمة أمي لنا بكل الحب والرحمة... وعيد أبي لكل من تأخر عن الصلاة، اعتناء رحمة بسلحفاتها "نجمة" التصوير البالغ الدقة والإبداع لأختي ليلي... كنت أرى الله في كل عصفور يحط على تيناتنا... في كل غيمة تعبر الفناء... كان الله في كل شيء فهل عمي أخي عن هذا... حقيقة يتوقف ذلك على مفهومه للذات الإلهية وهذا أمر لا يجب أن أفرضه أنا أو غيري عليه... كان يجب عليه أن يبحث ليجد... ولكم تمنيت أن يجد...

1 سورة النساء الآية 110-

"إن كان لابد لنا من حياة فلا بد أن تكون قيّمة وكريمة وإلا فإننا موتى" هذا ما كان يردده دائما على مسامعي ذلك الكهل القوي البنية الحاد الطباع الموفور المال، كان فقيرا يوما ما ولكنه عرف كيف يرفع قيمته وكرامته بقبضة يده انتزع الحياة التي أرادها دوما، لم أكن أشبهه في شيء وكان هذا الاختلاف هو ما يجعلني ابنه المفضل ولو أنه لا يُظهر ذلك ولا يُصرح به، على عكس عبد الله الذي هو نسخة مُصغرة عنه تماما وهذا ما جعل خلافتهما لا تنتهي أبدا، كان عبد الله عادة ما يُبعدني إذا أردت التدخل لحلّ أمر ما بينهما "أنت بالتحديد لست بحاجة لفلسفتك، احتفظ بها لأتباعك في الجامعة يا بوذا الجديد ولم أكن آبه به لأنني كنت أكثر شخص يفهمه وخصوصا يُحبه، عبد الله سيظل غصتي الكبرى، غصة العائلة التي لن تطيب ولن تُنسى.

تلاشت رائحة العفونة شيئا فشيئا أو ربما اعتدتها فقط وبدأت أتذكر روائح بيتنا الدافئ أول الحال، كيف كانت أُمي تُخرج أول خبزة من الفرن، تفرش شاشا أبيضاً على المائدة وتضعها بعناية ثم بحركة سريعة تُدخل الخبزة الثانية للفرن وتعود للمطبخ تُخرج مرطبان القهوة، تضيف ثلاث ملاعق كبيرة على الماء المغلي بالأبريق وورقة من اليانسون وبعضاً من الهيل وتُحرك برفق ثم تُخفف النار، مع كل حركة كانت أُمي تطرد كل ما هو سيء وبشع، تجعل صباحنا نقياً تماماً من كل شر وتعم رائحة كالنعيم أرجاء البيت، تُساعد أختي رحمة أبي في الوضوء تسكب له الماء بكل تأن وهو ينظر إليها بعطف وحنان لا يوصفان، لم يكن بحاجة لمساعدتها الصغيرة تلك ولكنه كان بحاجة لأن يستمد قوت قلبه

من براءتها الدافقة العذبة مع بداية كل صباح"، كطقوس مقدسة لقبيلة لا تعرف عن العالم بالخارج أي شيء ولكنها تحمي كل من بداخلها بكل الحب والقوة والعزم هذه كانت عائلتي وهذه كانت تفاصيل يومي التي بدت عادية في وقتها ولكنها اليوم أغلى من كل فرحة يمكنني تصورها لو كنت أعلم ما الآتي لكنت تمسكت بتلك اللحظة للأبد ولما كنت فرطت بها مهما حدث...

أردت أن أسأل الشرطي عن الساعة ثم بأخر لحظة صمتت وما الفائدة أيا كان الوقت سيمر وسيأتي الصبح لا محالة لأصبر وحسب، لا أعلم من أين أتت كل تلك المشاعر الإنسانية الموهلة في التطرف، أخذنا من كل شيء أقصاه سواء في الحب، في الكره أو في الانتقام... لا أعلم كيف بدأ هذا الأمر ولا إلى أين سينتهي شأني شأن الكل، وحده الذي زرع هذا سيعرف نوع حصاده أما نحن فسنكتفي بمجازاة لعبته هاته حتى نهايتها، كم سنخسر؟ لا أحد يملك الجواب وماذا سنجني، لا أحد يعلم كذلك، الأمر المؤكد أن الجني بغض النظر عن طبيعته سيكون وفيرا جدا... وفيرا بقدر هذا الجشع الذي يتنامى يوميا في النفوس بشكل مرعب ومقلق بحيث أن الرابح والخاسر سيتكافآن في أمر واحد لا محالة "الوفرة" أما، ما يحدث الآن فلا تفسير له، هل تغيرت جيناتنا البشرية وتحولنا إلى وحوش دامية يأكل القوي منها الضعيف ربما! لكن من هو الضعيف حقا؟! ربما هو الشخص الذي يقتل أقل أو قد يكون الشخص الذي يقتل بطرق معهودة، وغالبا سيكون الشخص الذي أضاع سلاحه أو نفذت منه الذخيرة فجأة... إذن فموازين القوة والضعف مُختلفة عندنا هي الأخرى، أو هي نسبية لما

يفرضه الموقف علينا نستطيع القول أن القوة والضعف وجهان لوطن واحد، أكون فيه دائما متلبسا بجرم ما، إلا أن يتحققوا من وطنيتي وولائي... وبناء عليه يتحدد موقفي ضعيفا كان أم قويا، ومنه يمكننا أن نستنتج أن القوي هو الذي يحافظ على حياته ويستمر حتى نهاية اللعبة وللحياة معان كثيرة أهمها أن تستطيع النوم إذا أنت أردت ذلك وأنا لم أعد أستطيع!!؟

في موقف مماثل لن يخطر ببالي إلا أمل، امرأة مثلها لا ينبغي أن تعيش في الظل، هي شمس، بحر، فرس جامحة، نجمة قطبية قصيدة مشهورة لشاعر مغمور، مُباغطة، صادقة، نقية قوية ذكية، صاخبة، مجنونة وغير متوقعة، وهذا ما جعل أبي يرفضها تماما، "هل جُننت يا بني، إنها سليطة اللسان، لا يسلم أي كان من السموم التي تنفثها، ظننتك تعقلت، جلست معها لدقيقتين كدت أن أحنقها، انسى أمرها تماما وزد عليه والدتها مطلقة، لا، إجابتي نهائية"، ولأنني جبان ولم أعتقد يوما أنني أستحق امرأة مثلها أنهيت الأمر بسرعة، أول مرة أرى أمل تبكي كان ذلك اليوم وبعدها قررت أن تبتعد عني نهائيا، رُبما لو كانت وفية لقرارها ذاك لكُنت الآن أذكرها بشيء من الندم والحسرة ولكنها كانت أقوى من ذلك كله، ليست الفتاة التي ظنها السي الطاهر ولا التي ظننتها أنا إصرارها على الحب والحياة يفوق قوتنا على تحمل الفكرة، ولكنني مُتأكد أنني لولا أمل لكُنت وضعتُ حدا لحياتي مُنذ زمن، أتذكر أنني مرة حاولتُ ذلك وكأبله كان لأبُد لي أن أتُرك رسالةً كصوت خافتٍ أخير يضحُّ به هذا العالم ولو لثانيتين ويتلاشى إلى الأبد "هذا الوطن المشوه يُشبهني كثيرا لأنه خائف ولكنه لا يُفِرط في

البكاء رغم الوجع وأنا مثله لم أعد قادرا على حمل العبء كله لوحدي، وجعي فاقتني حجماً حتى ابتلعني، وقفت مكتوف الأحلام أمام نموه السريع والمهول، ولكنني قررت أن أترك له جسدي الفاني المعطوب بكل ندوبه وجروحه وغصّاته، وأُحلق بروحي عالياً، نقياً كقطرة ندى، خفيفاً كنسمة، فرحاً بهذا كله كطير!!" عندما أفقت كانت بجانبني، لم تلتفت لي وهي تبكي "لماذا لا تكون كاتباً، أيها الجبان"

أول لقاء لنا كان بربيع ألف وتسعمائة وثلاثة تسعين، أذكره بكل تفاصيله وكأنه يحدث الآن، جلست أمامي بحافلة متجهة من قسنطينة إلى الجزائر العاصمة، كانت المرأة الوحيدة في الحافلة نظراً لما تفرضه الظروف الحالية، في الوقت الذي كانت النساء تتجنب وسائل النقل الجماعية، أذكر تماماً وقفها عند باب الحافلة، تفحصت المكان جيداً ثم أقبلت نحوي، امرأة بالعشرينيات، نحيفة وقصيرة نوعاً ما، سمراء بشعر أسود طويل مجعد، عينان واسعتان، رموش طويلة أنف مستدق ينعكف قليلاً عند أرنبته وشفاه مكتنزة محددة، لم تكن جميلة ولكنها كانت امرأة مثيرة وخاصة، جلست بالمقعد الملاصق لي ثم اقتربت مني: أنا أمل زوجتك، اتفقنا تصببت عرقاً وابتعدت عنها حتى التصقت بالنافذة، دق قلبي بسرعة وأحسست أنني فقدت قدرتي على الكلام، عند أول حاجز لا نعرف بطبيعة الحال لأي جماعة هو التصقت بي، وأغمضت عينيها، كانت كطفلة، كيف لامرأة مثلها أن تكون هشة لهذا الحد، بل الأهم كيف تستطيع إخفاء هذا عن الجميع ولماذا أنا، إنه القدر مجدداً نظرت بعيني الرجل الذي كانت

يُفتش الجميع كمن يبحث عن شيء محدد إنها زوجتي وهي مريضة وحامل ولا يمكنك أن تُفتشها ولو اضطرت لقتلي، نظر إلي ثم نزل، وانطلقت الحافلة وعدت لزاويتي، لكن أمل لم تُفلتني، بقيت على حالها حتى وصلنا، ثم اتفقنا أن نعود معا وهكذا بدأت قصتنا، لقاءات ولقاءات، مرة في الجامعة عندي ومرة بالمستشفى حيث تعمل كمرضة، حتى أخبرتها برغبتني بها كامرأة أنني معها ما تبقى لي من الأيام، لم تتردد أبدا بالقبول ولكنني خذلتها، كان عام الخسارات الكبرى عبد الله ثم أمل ثم رحمة... وانتهت الحكاية كما بدأت ولم ننته نحن كما بدأنا ولن نعود أبدا كما بدأنا.

"الدين لا يصنع أشخاصا جيدين" هذه كانت مقولة أمل أول ما خطر ببالي عندما سمعتها لأول مرة أنها كانت مُلحدة، كان حكي قاسيا عليها كما تقتضي الضرورة في هكذا مواقف بالحديث عن الدين، يجب أن يكون كل شيء صارما وحازما ولا مجال فيه للتساهل، نظرت إلي ثم استقامت بجلستها: لست كما تُفكر أبدا.

- أنا لم أقل أي شيء.

- قلت الكثير ولكنك جبان.

- كانت مُحقة، عرفتني على حقيقتي من البداية ولا أعرف لماذا استمرت معي، كنت أعيش في حدود قوقعتي، أحمل مسلمات الأجداد كإرث قديم يقصم الظهر، يخنق الروح، ولكنهم علموني أنه السبيل الوحيد للخلاص!

- لنذهب.

- إلى أين؟؟

- إلى منزلنا، أريد أن أُعرفك بأمي.

- انتظري، سأخبر أبي وسنأتي هذه الجمعة، لا تتسرعى.
وذهبنا فعلا ولكن أمل لم تكن من نصيبي، تأملت بداية ثم لم
أعد أملك مكانا كبيرا للتحسر على الأحياء وقد كثر الأموات
الراحلون وكان الحزن عليهم أولى، وانتهت قصتي مع أمل ومع غيرها
من النساء، لا أظن أن الحُب كفيل بإصلاح هذا النوع من
الفوضى، ما كنا بحاجة إليه حقا هو اليقظة لا الحب، و لو
اجتمع كل عشاق العالم في هذا الوطن ما استطاعوا أن يُصلحوا
منه شيئا، الحُب للمترفين، للفارغة قلوبهم لا المملوءة ذخائرهم
وقنابلهم، الحُب للسائرين بين الأحياء كأحياء حقا والمتجمّعين
حول المقاهي حتى لو تخطت عقارب الساعة الرقم سبعة، الحُب
للواضحة ضحكاتهم وكلماتهم ومصائرهم، الحُب لغير هذا الزمن،
الحُب ليس للمهزومين والمتقاعسين عن الحياة المخدولين
والخاذلين، المفتونين بالموت والأملين بقبر مُنفرد لا حُفرة جماعية،
وطن اللائح، وطن الخدعة الكُبرى، وطن "الإيديولوجيات
البلهاء" التي لا تجلب إلا الدم والعُقم، أفكار عقيمة، منازل
عقيمة، قرارات عقيمة وشعبٌ لا يجيد إلا فعل الدهشة!! هذا
الفعل الذي عادة ما يجعلني أتساءل عن السبب الذي جعل أخي
يكون طبيبا ومع ذلك استطاع أن يقتل، هل هو إنسان سويٌّ، لا
أعتقد أبدا أن شخصا مثله يكون أو كان يوما كذلك، ولكنها
محض صُدفة أن يواكب الأزمة ويحدث ما حدث ربما لو أنه وُلد
لزمان آخر غير هذا لكان طبيبا فقط، ولأستنكر القتل كما هو
حال كل الأطباء أو على الأقل كما يجب أن يكونوا...

لم أكن هكذا، دائما كنت أميل للجانب الرقيق والمشرق من الحياة إلى أن أفلست وأضعت جُلّ مشاعري الإنسانية على طول طريق لم أتجراً على خوضه يوما وأنا بكامل وعيي ولكن للصراحة فقد مشيته كاملا مرات وأنا نائم أو مُعلقًا بين حُلْمٍ ويقظة، لا أحد قد يفهم ما الصعب في الأمر، تخيل فقط أن تركض يوميا أميالا بعقلك لتستيقظ وأنت في نفس المكان، إنه لأمر مُتعب ومُضنٍ ومع ذلك لم يحدث يوما أن نظرت للحياة بطريقة وحشية أو مأساوية، كنت أرجح كفة الخير والحب والبياض ولطالما راهنت عليها ولكن يبدو أنني كنت مُجرد رومانسي تافه يظن أن سرب الحمام المار على فناء بيته يرفرف مُبتهجا بحريته بينما هو يطير جاهدا للبحث عن طعام ووفقا لطبيعته ولأسباب بقائه، للأسف اكتشفت هذا مُتأخرا جدا ولم أحصل يوما على وقت كافٍ للتعلم بنظرتي للحياة مُجددا إذ أصبح الموتُ سيد الموقف بامتياز، من تراه يُفكر بالحياة أو ماهيتها الكل مشغول بالتفكير في طريقة موته، يتوقعها كل ليلة قبل أن ينام وعندما يستيقظ في الصباح ويتفحص جسده وسريره وبيته يلعن حظه البائس ويُفكر بطريقة لإطعام أبنائه الجائعين والمتباكين في ساعات الصباح الأولى، أعرف معنى هذا جيدا لأن إطعام "نجمة" وجدتي يتطلب مني الكثير من الجهد رغم وفرة المال.

في طريقنا إلى مدينة الملاهي، كانت رحمة تقرأ اللافتات وإشارات المرور وكل ما وقعت عيناها عليه، فجأة صرخت: أنظر يا أخي إنه دولفين، رفعت نظري من الكتاب بين يدي وتطلعت من النافذة: أين هو يا عزيزتي؟ نظرت إليّ بغضب وحنن: لقد تجاوزناه

وأشاحت بوجهها عني معاتبة، أردت أن أسألها: هل حقا رأيت دولفينا، هذا غير وارد في طريق كهذا ولكني لشدة ما رأيت منها فضلت الصمت وإتمام القراءة.

بالعودة إلى ذلك اليوم... لو أعطتني الحياة فرصة ثانية لاخترت الجلوس بجانب النافذة ولاستمتعت بكل تفاصيل الطريق مع صغيرتي رحمة، دون أن يضيع مني أي شيء ولو كان بسيطا وغير مهم، لكنها إرادة الحياة، هي ما يجعلنا نؤمن يقينا بأن ما حدث سيحدث لو أعدنا الكرة مليون مرة، وما نستطيع تغييره حقا هو اهتمامنا بالأشياء، وهنا يكمن جوهر الحياة الحقيقي إنّه "الامتنان".

يوم قبل مغادرة رحمة لهذا العالم، تجلس بالفناء، تحمل نجمة بين يديها الصغيرتين وتُغني أنشودة تعلمتها للتو: يا أخي مُد يديك... يدي مثل يديك، لنحسب حتى العشرة وهكذا دواليك واحد، اثنان، ثلاثة... عشرة "حفظنا الأنشودة لكثرة ما أعادتها كانت أول أنشودة تحفظها والأخيرة كذلك.

في طريقها إلى المدرسة بالصباح التالي، دهستها سيارة عند مفترق الطرق، لم تكن تعبر الشارع، صدمها السائق من على الرصيف وأكمل طريقه، عرف الجميع أن للأمر علاقة بتصفية حسابات مع أخي عبد الله، لأنه وحسب آخر الأخبار التي وصلتنا رفض تطيب أمير جماعة إرهابية كانت تدعو للجهاد، هكذا قال أبي لكي يبرر أن أخي ليس إرهابيا وليس قاتلا، لكنه في نظري كان كذلك غادرتنا رحمة وانتزع الله الرحمة من منزلنا وحيننا ووطننا ككل، بعدها بشهور لحقتها أمي لأنها لم تتحمل الصدمة بدأت

الغرف تُظلم الواحدة تلو الأخرى وأصبح منزلنا كغول بقم واسع مظلم ومُهمر اعتدنا الفقد ولم نعد نُفجع كما في البداية تدهورت حالة أبي الصحية فقررت ليلى أختي اصطحابه لطنجة بالمغرب حيث أهل زوجها بعد أن باعوا كل ممتلكاتهم هنا، ربما هي المرة الأولى التي أرى فيها أبي مهزوما ومقهورا بهذا الشكل، كل كلمات التعزية وأساليب المواساة لم تكن لتنفع في حالته تلك يُقدم خطوة ويُؤخر أخرى وعيناه تنظران ساهمتين في الفراغ كل الناس بالمطار كانوا لا شيء وضعت يدي على كتفيه وسألته: هل تريد العودة يا أبي؟ رفع عيناه ناحيتي ثم قال بصوت مُتهدج: السي الطاهر لا يرجع أبدا عن كلمة قالها مهما كانت خسارته بالغة !!

الخسارات.. من بإمكانه تقدير حجم الخسارات مثلا، في حالة أبي كان قد خسر كل شيء بمجرد أن اقتنع بترك الوطن والذهاب برفقة ليلى التي لم تكن قادرة أن تواسيه ولا ابنها الذي يحمل اسمه، إذ كان أبي خاسرا بامتياز !!

أقبل الشرطي مُجددا وهذه المرة كانت نظرتة مُختلفة عن الأمس، فتح باب الزنزانة: أنت حر الآن...

حسنا أنا حر، ما معنى أن أكون حرا لم أعد أعرف معنى مُحددا للحرية بسجننا الكبير هذا، السجن بالخارج، السجن هو ما وراء أسوار الزنزانة وليس داخلها، خرجت إذن، كانت ليلة بيضاء تستحق العناء حقا، لأنها خلصتني من كل ما هو مُعقد وضبابي لمدة من الزمن وكان ذلك لذيذا ومريحا.

أفتح باب البيت، أذهب لغرفة جدتي ديبيا، كانت تغط في نوم عميق، تفقدت نجمة، بدت جائعة ومُتدمرة أعطيتها ورقة خس

ذابلة كانت كل الموجود بثلاجتي، ثم دخلت لغرفتي استلقيت على السرير وغطيت بنوم عميق لم أستفق إلا على وقع الخطى يقترب شيئا فشيئا، أرهفت سمعي إلى أقصاه جلست بوضع القرفصاء فتحت عيناى على وسعهما متبعا انعكاس الظل على زجاج النافذة، كتمت أنفاسى قدر المستطاع الصوت يدنو أكثر فأكثر وقلبي يدق أكثر فأكثر أما الإيجابيى من هذا كله أنى حى، أجل أنا حى، ها أنا أستشعر الخوف وأرغب بهذه الحىاة بطرىقة ما، فجأة اختفى الصوت وسكنت حركة الظل، تزايدت وتيرة نبضى وأحسست أنى قاب خطوات من الموت، ارتعشت فرائسى.. تصببت عرقا ثم أصبح كل شىء متداخلا، أحسست أن غرفتى مملوءة عن آخرها بالماء، رأيت كتبى وأغراضى وكأنها تطفو، وضاق تنفسى تدريجىا... مهلا، هل أنا أغرقىا أبى، ما من قشة تنقذنى ها أنذا أراك مجددا تتوعدنى كعادتك، تطلب منى أن لا أقترب من النهر ولكننى الآن لست غارقا فى نهر أنا غارق فى كأس ماء، أتخبط أضرب رأسى على جدرانہ الزجاجىة يمنة ويسارا... ما من مخرج... أنا أغرقىا أبى فهلا أعطيتنى يدك أو ربما ساقك... أنا أرىد ظهرك أيضا لأختبئ خلفه.. أرىد كتفك كذلك لأبكى عليها ما استطعت... أرىدك هناىا أبى فقط، هكذا وبلا سبب كما هى حال هذه الحرب القائمة بلا سبب وكما هو هذا الخوف المزروع بقلوبنا بلا سبب هو الآخر... الآن وأنا أغرقىا أراك البطل الوحىد الذى بمقدوره كسر هاته الكأسىا أبى... الشخسى الوحىد الذى سىنقذنى من الغرق!!؟ ثم سمعت خشخشة أوراق التينة بالفناء، لا بد أنه سىتجه للسطح، سقط منه شىء ما محدثا صوتا يشبه الفرقعة، ثم ابتعد

وقع خطاه شيئاً فشيئاً حتى اختفى تماماً... استعدت إحساسي بالعالم من حولي، اختفى الماء وعادت كل الأشياء إلى مواضعها الأصلية تدريجياً... لا شيء يطفو سوى بعض الذكريات عن أبي والرحمة بعيون أبي هذا كل ما بقي لي حفنة من الذكريات التي أستحضرها للضرورة القصوى، وضعت رأسي على الجدار، وزفرتُ كل تلك المشاعر الثقيلة دفعة واحدة سألت دمعة ساخنة على خدي وشردت.... أتراه الخوف وما يكون الخوف إذا لم يكن هذا... ترى من يكون الشخص الغريب؟؟ أنا لا أعرفه، لا أعرف اسمه ولا لقبه ولا مكان ولادته لا أعرف توجهاته الفكرية ولا السياسية، لا أعرف إن كان متعلماً أو أمياً، لا أعرف شكله ولا لون بشرته ولا لون عينيه... لا أعرف ديانتته ولا جنسيته... فهل أراهن على إنسانيته لئلا أخاف!! إذن هل الخوف مرادف للمجهول... أنا حقا لا أعلم.

أبتلعُ جُبنِي وأتَشكُلُ من جديد على هيئة كائنٍ هادئٍ وناضِحٍ
يحتمل حياته كما هي ولا يتجنب طرح الكثير من الأسئلة.

في الصباح وجدت رصاصة بالفناء، التقطتها وصنعت منها قلادة لفتها حول عنقي، وكأن شيئاً لم يكن، ثم جلستُ إلى مكثبي هذا اليوم هادئ تماماً، لا بد أن أشخاصاً كثيراً سيموتون وسيسعمهم دفثري مهما كان عددهم ومهما كانت صفاتهم وتوجهاتهم ورثتهم، سيكونون في الأخير ضحايا على صفحات هذه الكراسة المتسخة، أليس هذا عبثاً، بعد كل هذا الركض في سبيل الحياة هي لا تمنحنا حتى الفرصة لنلوح للأحبة "وداعاً".

الفصل الثالث

أمل... تَلَصُّصُ الحياة المُلقق

"فيكِ غرقِ كل شيء"

-بابلو نيرودا-

"لا أتمنى غير يدٍ، يدٍ جريحة لو أمكن ذلك " لوركا هو القائل.

- حسنا وبعد!!

- أنا اليد الجريحة تمتد لك فهلا قبلت امتدادها على أنه طلبُ حياةٍ لا رغبة في مساعدة.

- ما الذي جاء بك مُجددا، أمل من فضلك أنا لستُ يوسف الذي عرفته قبلا، فقط لو أردتِ مُساعدتي في رعاية يمة "ديبيا" ونجمة سأكون مُمتنا، أما أنا فقادر تماما على إدارة شأني الشخصي دون الحاجة لكل هذا الضجيج، كل ما أريده هو الصمتُ والهدوء، من فضلك افهميني.

- حسنا، كما تُريد.

- هل ضغط جدتي عادي.

- الضغط الدموي أجل، لكن الضغط العقلي لا أعتقد، جدتك مجنونة تماما، ببساطة ما تراه غير حقيقي.

- المهم أنَّه حقيقي بالنسبة لها وهذا كافٍ .

- أطرقت أمل برأسها ثم عادت لتسألني في محاولة منها لإنقاذ الموقف، هل نمت جيدا؟ لأنني اتصلت بك مرارا ولم تُجب؟

- لقد كنت أستحم.

- لساعتين!؟

- الليل بطوله وأنا أستحم.

- تأكدت أمل أنها يجب أن تُنهي هذا الحديث المُعقد والذي لم تكن بارعة فيه يوما، رُبما يجب أن أغادر فقد تأخر الوقت.

- من فضلك أطعمي نجمة أولا.

- حسنا؟

- في سرها لعنت تلك السلحفاة الشرهة وتمنت لو أنها فقط تستدير وتقول له أنها تكره هذه السلحفاة وتكره هذا الوضع وتكره نفسها وتُحبه ولكنها قالت أمرا مغائرا لما فكرت به "لا أريد أن أفقد شغف الحياة والله يا يوسف هذا آخر ما يُمكنني أن أتحملة، أن أخسرك لماذا لا تكون إنسانا عاديا، لماذا تُعقد الأمور لهذا الحد، ما العيب إن نحن تزوجنا وأنجبنا الأطفال، ما العيب في أن تكون لنا حياة طبيعية نعمل وننام ونأكل ونمرض وإن متنا فلن نكون الأولين ولا الآخرين، لماذا يجب أن تكون مُعقدا هكذا؟؟"

- الأمر مُعقد أمل لقد أخبرتك.

- أنت من تجعله كذلك.

- لا أود إجراء هذا النوع من الأحاديث مع أناس أحبهم، تعرفيني جيدا ومع ذلك تصرين في كل مرة على فتح هكذا موضوع، وستجدين مني نفس الجواب دائما، إن كنت تستطيعين الاحتمال ولو قليلا بعد سأكون شاكرا، إن لم تكن لك المقدرة على هذا فلن تكوني خسارتي الأولى ولا الأخيرة.

- أنت وغد.

- أعلم هذا جيدا.

- لن أطعم تلك السلحفاة اللعينة، ها أنا أعلمك، سلام (آخر ما كنت أحتاجه شجار معها).

- ماذا تقترحين مثلا، أن أنزل للشارع وأستوقف أحد المارة ثم أسأله هل ترى أن حياتنا هنا مُجدية فعلا، أتعرفين ما الذي سيفعله، سيصبق بوجهي على أقل تقدير.

- أنت تُبالغ...

- أنا لا أبالغ، أحاول أن أقرب لك الصورة وحسب، أمل لن يُجدي نفعاً كل ما تفعلينه معي، أنا إنسان منتهي الصلاحية وأنت امرأة تُحب الحياة وتقبلها كما هي تماماً، لو سكنت الجحيم لاستطعت أن تجدي سعادتك بطريقة ما، أنا مُختلف عنك كثيراً، أنا أهتم حقاً، وأقدر الحياة أضعاف ما تُقدرينها أنتِ، ولكن الفرق الوحيد يكمن في أنني أريدها أفضل بينما تريها رغم كل شيء قابلة أن تُعاش، أمل أرجوك لا أريد إجراء هذا الحديث مرة أخرى، إن أردت السعادة فأنت في المكان الخطأ ومع الشخص الخطأ أيضاً.
- كالعادة، أنت تُبالغ.

- حسناً أنا أبالغ، لكن لتقبليني كما أنا وحسب لست مُلزمة أن تُغيري نظرتي للحياة، خصوصاً حالياً.
- وكأنك تحمل هم البشرية على عاتقك.
- لستُ أفعل أنا فقط أهتم.

- يوسف، سأغادر لأمنحك مساحة من التفكير، عندما تكون مُستعداً للتواصل مع أناس حقيقيين وموجودين حقاً، اتصل بي لن أتأخر، إلى اللقاء ولن أُطعم سُلحفاتك الشرهة في طريقي... لا تتجرأ على طلب هذا حتى..
- لم أكن لأفعل، مع السلامة.

- صببتُ أمل جام غضبها على الباب الحديدي المسكين وانصرفت، كان علي أن أجري هذا الحديث لأتخلص من أمل ليس هنالك من تعبير أدق، أردت التخلص منها، كان صوتها المُفعم بالحياة مُزعجاً جداً، كصيرير باب بيت كثير السكان، لم أكن مهياً بعد لأعود لعملي بينما كانت تُلح، أكره النساء اللحوات وأمل واحدة منهن،

رغم كل ما تعنيه لي ولكنني لم أعد أُطيق حتى نفسي، أنا لا أبرر
عزّلي ولكنني أحتاج للفراغ والتفرغ، أريد استقالة ولو مؤقتة،
لأنني لو استمررت على هذا الحال لفقدت حتى وظائفني
الفيزيولوجية، سيُصبح التنفس عملاً جباراً يستحق كل التركيز
والوعي وربما سأختنق قبل أن أفهم طريقة التنفس الآلية التي لم
أعبأ لها يوماً، كُنْتُ سأصبح مشلولاً أو لرُبما مشيت على يداي
وعلقت رجلاي للأعلى، أو لنفرض أنني أردت شرب كأس ماءٍ
وصبته بأذني اليمنى فلم أرتوي ثم جربت الأذن اليسرى وهكذا
كنت سأستمر حتى أموت عطشاً... كل هذه الأمور كانت لتحدث
لو أنني حاولت البدء من جديد بوجهٍ مُشرق وغبض... حمداً لله
أنني لم أستمع لها كانت يائسة مني تماماً، أعلم أنها لم تُعد تثق بي
أبدًا، وأني أُحْمِلها مالا طاقة لها به، ولكنني لم أُجبرها يوماً على
هذا كما أنني أُخبرتها أن تتركني ولكنها غريبة جداً، رغم تدمرها
الدائم ستبقى يُمكنني تدبر أموري جيداً، أنام ساعاتي اللازمة
وأشرب الماء بانتظام وأحياناً كثيرة أصلي وأتذكر ترتيل أدعية أُمي
دون أن أنسى منها أي كلمة... أنا أتدبر أمري، أفعل كل هذا نهاراً أما
الليل فله طقوسه الخاصة، قد أقرأ صُحف العام الماضي وأُعد
الضحايا وربما أُعد بعض القهوة أو الشاي وأُحكي لجدتي عن كل
تفاصيل روحي الأكثر عمقا دون أن أخاف لأنها ستنسى وهذا مُريح
جداً، أنا يا أمل لا أحتاج لأناس مُتكلمين، يُبدون آراءهم وشرثرون
بكل شيء، أنا أحب الناس المُنطفئين مثلي، الذين أسمعهم
ويسمعونني عندما تقتضي الحاجة فقط، الذين أُبادلهم أفكارني
حتى وأنا صامت تماماً... الذين يفقهون لغتي الأم، لغة الأمل !!

جلستُ وحيدا على الحافة المُزلجة للتينة مُجددا، ها أنا ذا
أفقد قدرتي على التعمق في حديثٍ مع الصامتين كذلك الذين
كانوا ملاذي الأخير لئلا أتوقف عن الثرثرة وأندثر، "نجمة" لم تُعد
تفي بالغرض ولا جدي، الليلة أنا أمشط السماء وأبخلق طويلا
بكل النجوم دفعة واحدة لا فضل لنجمة على الأخرى ما دامت
نجمتي قد فقدت بريقها، ألمس الهواء الثقيل برموشي وأتحسس
جزيئات الدخان والرماد، هي مُرة كغصّة، هشة كبلد مُختلط
الأعراق، أعترض مسارها بالدموع والمخاط والسباب، أنا أعوي
كأي ذئب عندما يستحيل القمر بدرا دونما أن يُثبت فُحولته ودون
أن يصطاد أي فريسة يُباهي بها القطيع، مهزومٌ تماما وفارغ من أي
بطولة، أثار هذه الحرب لن يمحوها الحُب ولكن لربما تمحوها
صدقات الأمهات... لا أعرف كم الوقتُ الآن ولا حاجة لي بمعرفة
ذلك ولكن أكثر ما أخشاه الآن أن أُغادر هذا البيت إلى اللامعنى،
وكل ما هو خارج هذه الجُدران هو اللامعنى، فجأة أتساءل: كيف
سمحتُ لأبي بالرحيل، كيف أفلتتُ يديه الخشنتين والمُجعدتين
لشدة الكدّ والعمل الشاق في سبيل أن يكون السي الطاهر هو
السي الطاهر الذي يحترمه الجميع وأن نكون نحن أبنائُه الذي
يباهي بنا القريب والغريب وأن لا يكون هذا الوطن هو نفس
الوطن الذي أراد لنا أن نعيش فيه ثم سألت نفسي: لماذا يموت
الجميع وأنجو أنا، لماذا لا أحصل على شرف الموت في هذا الوطن
حتى وإن كان لا يحفل بالأجساد الكثيرة التي تنعجن بين ضلوعه
كل يوم ولكنني أفضل ضيقه بي على رحابة صدر هذه الحياة
البائسة، أنا لم أكن بطلا يوما، الأبطال وحدهم من لا يموتون إلا

في نهاية الحكاية، ولكنني أختلف تماما مع هذا الطرح والدليل أنني حيٌّ أرزق رغم جُبنِي وقلة حيلتي، ربما لأن هذا زمن التناقضات الكبرى وأنني بطريقة ما أنتهي لهذه الحياة الباهتة وهي كل ما يُناسبني، الموت في هذا الزمن للأبطال، أما الجبناء مثلي سينتظرون في طوابير طويلة موتا لائقا لن يأتي، لهذا سنرضى بنصف حياةٍ كاملة الذكريات والمآسي، حيث الأرض رُغما عنها تشرب الدم مُتحدية كل قوانين الطبيعة كابن ضالٍ ميت القلب... تهنّدُ طويلا ثم تجرأت على السؤال الصعب الذي لم أعد أحتمل نقره اليومي على قشرة رأسي: هل سيُسامح عبد الله أبي؟؟ ولكنني أعلم مُسبقا الجواب الأسئلة التي نعرف أجوبتها هي الأصعب أعلم جيدا أنّ عبد الله لن يُسامح أبي، وأبي لن يُسامح نفسه ولكنني دائما أريد أن أسأل أخي أمرا واحدا ووحيدا لو كان ذلك ممكنا: لماذا هو ممتلئ لهذا الحد، لدرجة أنك بمجرد النظر إليه قد ينفجر!!

أمل هي ذلك النوع من الفتيات الذي سيقول لك أن القادم من الأيام هو الأجمَل وهي تخيط يدا مقطوعة من الوريد للوريد لشاب دفعته الأوضاع الحالية للانتحار أو ربما لا علاقة للوضع الحالي بذلك، لاشك أنه شاب ضعيف وحسب، هكذا هي أمل ما من أمر يصعبُ الحديث عنه، تريدك أن تتحدث عن الموت كما هي تتحدث عن الحياة وإن امتنعت أو لم تستطع تستغرب الأمر، تظن أن الجميع مثلها متصلحين مع ذواتهم ومُتسامحين مع أخطائهم ومع أخطاء الآخرين الاعتيادية هي لا تُدير ظهرها لأي أحد مهما كان هذا الآخر أو فعل والأهم من هذا كله أنها لا تُدير

ظهرها للحياة، تعيش كل تفاصيل يومها كما قبل الحرب وكما لو أن شيئاً لم يتغير، من يذهب على أيامنا هاته مُصفاة شعر من غير أمل، من يهتم بآخر صبيحات الموضة، من تضع خلخالاً على كاحلها حتى يظن كل جيراني أنها مومس تعمل تحت الطلب، وهي طبعاً لم تكثر يوماً لما يظنونها ولا أظنها ستفعل يوماً، هذه اللامبالاة المُستفزة تجعلني أهرب منها قدر المُستطاع لأنها تُفسد علي حُزني وعُزلي، لا أحب الناس الصاخبين والعاشقين للحياة يجعلونني أتنبأ بمغادرتهم القريبة، مُغادرتهم التي لم يُفكروا أو يأبهوا يوماً بها بينما أنا الذي لا يعنيني الأمر أبه، ربما أنا مثل أخي عبد الله تماماً، ربما نحن عائلة ممتلئة عن الآخر وهذا ليس وصفاً أدبياً إنه مرض نفسي على ما يبدو.

- يُحب أحدنا الآخر، لماذا لا تعترف؟

- ليس هذا مُهماً يا أمل، لا وقت لدي لهذه الأشياء.

- هذه ليست أشياء، إنها حياتنا، ثم ما الذي تفعله غير النوم حتى عمالك أهملته، تجمع كل محاضراتك ومشاوريك في يومٍ واحد تخرج ليوم واحد وتنام لست أيام، هذه ليست حياة يا يوسف أنت شبه ميت...

- أششششش، لا تنطقي بأي كلام آخر، انصرفي وحسب من فضلك.

- ولكن...

- انصرفي ...

- تنصرف أمل وقد أيقظت براكين بداخلي لطالما جاهدتُ لأبقيها خادمة، ها هي توقظها كما هي عاداتها دائماً تبعث الحياة في كل ما

حولها، ولكنني أريد أن أحافظ على انطفائي الاختياري هذا لأقبل كل هذا الفقد والغياب، أخرج ليوم واحد ولو استطعت أن لا أخرج أبدا لفعلت، أنا لا أشبه كل الذين غادروا بإرادتهم أو رغما عنهم، أنا على الدوام آخر من يتخلى وآخر من يتخذ الخطوة ليصفق الباب ويرحل، هذا من أوجه قصوري الكثيرة ولكنني لا أستطيع الآن أن أترك هذا البيت وكأنني لم أكبر به يوما، لا أستطيع أن أدير ظهري لكل هذه السنوات والذكريات وكأن شيئا لم يكن، أتمنى أن أموت هنا كما وُلدت هنا، هذه آخر الأماني، وأما أن تنجلي هذه أزمة فهذا يحتاج لكثير من الدم والمراوغة والتلاعب والذي لم نبلغ نصابه بعد، آه يا أمل أو تظنين أنني لا أتمنى أن أحتضنك بين ذراعي وأنا كطفل دون أن أستيقظ على دوي انفجار ورؤوس مفصولة عن أجسادها، لا أحد يكره هذا ولكنني لا أجد أن أظاهر باللامبالاة، كل ما أستطيع فعله هو البقاء هنا مكتوف اليدين أعد الموتى وأسجلهم بدفتري، هذه ليست هواية جديدة ولكنني مُضطر لهذا كرد فعل خافت لإدانة الموت محظوظون هم، كل الذين ينامون في دفاء أسرتهن محاطين بالأجساد الغضة بينما تقاسمني صور الموتى وتفاصيلهم سريري يتحول هذا الصرح ليلا لمقبرة جماعية لكل ما هو حي ويتنفس ولكنني أعدك، بعد أن تمتلئ هذه الدفاتر عن آخرها سأرحل، إن أنا متُ قبل هذا فسيكون أروع ما يحدث لي إطلاقا، يقهرني القائلون أن الموت حق وهو ليس كذلك أبدا، الموت ترف لا يناله إلاّ أحياء الله وعباده الطيبين، الموت لا يمشي معصوب العينين كما يتوهم الكثيرون، الموت يرى أبعد من المُستقبل الذي لا نعرف

كيف نعيش حاضره ولا كيف نتخلص من ماضيه وهؤلاء الأحياء الذين ينتظرون دورهم بترقبٍ واضح فيتخيلون المرآثي والقبور والليله الظلماء الباردة الأولى، هؤلاء لا ينالهم من الموت إلا خياله ورائحته التي تحثهم على الانتظار الذي هو أقسى المنافي سليل الأمل المغلف باليأس والشك واللآيقين، لا شكل جديد قد تكتسبه هذه الحياة باستثناء ابتكار ألامٍ لا مُنتهية، تنهش أظافرها الحادة بعُنق العمر الذي لم يعد قادرا على التمييز بين النحيب والقهقهة فقط أغمض عيني وأحترق بهدوء تحت الغطاء الصوفي الثقيل الموت ليس حقا، الموت ترف .

يا أمل لم تمنحني الحياة الفرصة لأنغزل بعينيك الواسعتين ولا بابتسامتك الأسرة، لم تمنحني الفرصة لأكون إنسانا مُمتنا لكل هذا الجمال والروعة بك وبكل ألوان الفرحة والنشوة أخرى. لمعة عيونك، ذلك البريق الصارخ الذي يستنجد بي يوميا يجعلني أتحسر عليك أكثر مما أتحسر على نفسي، أنت لا تستحقين رجلاً فاترا مثلي يدفن رأسه بتراب الماضي بينما تُمسكين بعُنقه تُحاولين إقناعه بتجربة العمر اللذيذة التي يُضيعها بغبائه وخوفه، كل ما أطلبه منك هو المغفرة ولا شيء آخر .

الفصل الرابع

"ديهيا... الزهايمر كحل جذري"

"تعلمنا من التاريخ أن لا أحد يتعلم من التاريخ"

هيغل.

لليلة الثالثة يراودني نفس الحلم، تتدلى عيناى من محجرهما
يُحْدق عبد الله بي بفزع، يُولينى ظهره ويمضى.. أحمل عيناى بين
يدي المضمومتين وكأنهما تبتهلان مُلحتين أمشي وسط الظلام على
غير هدى، فجأة تُفلت منى العين اليمنى وتتدحرج، أحاول أن أوجه
عيني اليسرى، أثبتها على كفى وأحركها ذات اليمين وذات الشمال
علني أجد بصيص نور أخاف... أرتعش... أريد أن أبكي لكن
محجراى فارغان.. أصرخ.. أستغيث بكل ما أوتيت من قوة أفتح
عيناى أجد أمى تمسح على وجهي وتتميم دعاء لا أسمعهُ أو لا
أفقههُ، تناولي كأس الماء أنظر إليها بفرح: أمى عيناى فى مكانهما،
تبتسم: أجل عزيزى. يتكرر هذا الحلم للمرة الثالثة يا أمى، تنظر
إلى: عساه خير، لا تقلق.

- لم أعلم أنني ليلتها كنت أرى مستقبلى بكل وضوح حتى وأنا بلا
عينين.

- بصفتى أستاذ تاريخ بجامعة عريقة كجامعة قسنطينة كان لا بد
لي أن أكون فخورا أو على الأقل سعيدا بما وصلت إليه وأنا لازلت
بالثلاثينيات، ولكنى لم أكن كذلك يوما، كنت دائما أخجل من
اللقب المسند إلى عنوة "الشيخ" وليس لكلمة الشيخ عندنا علاقة
بالعمر ولكنها دليل على تقدير الناس واحترامهم لمهنتك.

ما ظل يحُز في نفسى هو ما تفعله الكتب المقررة بعقولنا
اليافعة، كنت أكره التاريخ المعاصر، بل وأمقته أكره الطريقة التى
يُدرس بها، لا شيء فى مكانه الصحيح، إلا بعض الأحداث التى لا
يمكن تزويرها أو إخفاؤها لأنها ظهرت سريعا للعلن بحيث لم يبق
ما يُمكن أن نُخفيه، المحاضرات لا تتغير، الأسئلة كذلك والطلاب

يتشابهون جدا، كل عام أحلم بطالب أتشاجر معه وأُفرغ بوجهه كل الهراء الذي حشوت به رأسي طوال هذه المدة ولكنه أبدا لم يأت، في هذه القاعة أُلقي محاضرتي بكل أريحية وملل، لا يُقاطعي أي منهم، أحسهم مُرغمين على تقاسم هذا العبث معي ولكي نبقى لابد لنا أن نحتمله حتى النهاية وإلا فإننا سنسقط في الفخ فلا نجد ما نفعله ونتوه بحثا عن اللأشيء في كل شيء يرفع الطالب الذي اعتاد أن يكون الأول منذ سنتين من التحاقه بنا، إنه عامه الثالث وأنا أحيي فيه هذه الرغبة في التفوق على لا أحد فلا أحد يُنفسه، الطالب الذي يليه عادة يكون بعيدا عنه بخمس نقاط أو أكثر أحيانا، سألني بجديّة عن أسئلة الامتحان ولكنني لم أجد سببا لأخبره كيف يمكن لأسئلة الامتحان أن تكون، عندما تعجبت قال: كل الأساتذة يحددون لنا المحاور التي يجب أن نراجع منها أنا تعرف الوضع الخاص الذي يمر به البلد، لم أستطع ايجاد الرابط العجيب بين أسئلة الامتحان ووضع البلد ولكنني اكتفيت بالصمت، عُدت للدرس كأن لم يُقاطعي أحد طالب بلحية يبدو حديث العهد بهذا الدين لم يملك إلا أن يستغفر الله، آخر يضع قبعة ونظارة زم شفّيته كمن يتوعدني باحتجاج يوم الامتحان، وحده الطالب الذي سألني استمر بتقليب الصفحات يعدّ المحاور التي درسناها لحد الساعة أظنه بدأ يرسم جدولا زمنيا في رأسه للامتحان القادم، يا له من مسكين... يا لي من مسكين.

- أظنني أستطيع مُساعدتك.

- كيف؟

- لن يكون السؤال من ضمن ما تطرقنا إليه لذا كُف عن تقليد صفحات كتابك.

- امتنع وجهه، بدا أنه على وشك أن يصاب بنوبة هلع، إنه جزع تماماً مما يجهره: "يمكنني أن أفتح صفحة واحدة عشوائياً وأختار لكم الإجابة ولكم أن تبحثوا عن سؤال " كيف؟؟

- سأعطيكم الإجابة وعليكم أن تُخمنوا السؤال.
- هذا سيكون سهلاً.

- لا أعتقد .

- قطرة شديدة الملوحة هذه القاعة من بحر الوطن الشديد العمق والتشعب... هنا وطن صغير يُنبئك عن الوطن الأكبر كان من واجبي أن أكون أميناً فأنا لا أستحق هذا اللقب أبداً ولكن حفظاً لماء الوجه فإنني عكفت على تصحيح الكثير من أخطائي في الآونة الأخيرة، وقررت أن أكون أستاذاً حريماً بحمل الأمانة أمانة تاريخنا المشترك... على الأقل الذي عايشته منه أو روته جدتي "دهيباً" وجدتي أبداً لا تكذب، بينما المؤرخون كذبوا. جرت العادة أن ألتقي بطلبتي المهتمين منهم طبعاً بتحصيل المعرفة الحقيقية والحالمين التواقين لواقع أكثر تقبلاً وجمالية نلتقي وكل من أسئلته وخوفه وشكوكه وأمله بالغد القريب نجلس بالركن المعتاد من المكتبة، ثلاث شباب محمد، محسن وعلي وأنسة بعمر الزهور هي زينب وأنا الكهل على مشارف الأربعين... أنا أكبرهم سناً وأقلهم حماساً وشغفاً، يُعاملونني كأنني موسوعتهم التي تملك كل الأجوبة، عندما يستعصي علي الجواب وأخبرهم أنني لا أعلم، أكاد أرى

عيونهم تصرخ بي: كاذب!! ولكنني حقيقة لا أعلم، الكثير من الأسئلة والجواب واحد... تاريخنا مشوه يا أحبتي ولا يمكنني أن أضيف أكثر . سألتهم مثلا لماذا ندرس التاريخ؟ كانت إجابتهم بديهية: نتعلم من أخطاء الماضي، لئلا نعيد الأخطاء والهفوات نفسها، ولنبي مستقبلا متوازنا انطلاقا من أحداث كلفتنا الجهد والوقت والدم. أردفت زينب: والدم أغلى ما يمكن بذله وأسهل ما يمكن تناسيه عندما تعى قلوب البشر !! أجبتهم: ندرس التاريخ لكي لا نحس بغربتنا، لنعرف أن السابقين عاشوا ما عشناه تماما ولكنهم تغلبوا عليه بطريقة ما، ربما تختلف التفاصيل ولكن إذا ما دققنا بالأمور سنجد أن الأحداث تتكرر، وغباءنا المتوارث يتكرر هو الآخر ولكن العجيب بالأمر أن صبرنا لا ينضب ولا ينفذ... نستمد الأمل من التاريخ حتى ولو لم يكن مثاليا كما تصوغه الكتب وتبأثره أقلام المؤرخين... حسنا تمنيت هكذا إجابة، رمقي الأربعة بنظرة إعجاب... ولكنني أردت منهم أمرا آخر... أردت رأيا مخالفا... بل وتقت له لكنني لم أحصل عليه لحد الآن .

كنا قد اتفقنا أن لا يبدي أي منا رأيه بخصوص هذه الحرب الأهلية، كنا قد اتفقنا أن نتحدث بالماضي وحسب وقد كان هذا اتفاقا يجنبنا الدخول في متاهات نحن في منأى عنها، أردنا لإنسانيتنا أن تنتصر وأن تبقى محايدين إلى أقصى حد، سارت الأمور على ما يرام، نلتقي نتحدث، نسأل، نجيب، نفكر، نحلل نمتعض، نضحك، نتعصب، نتبادل الضحكات والنكات وكثيرا من الكتب والمجلات... كان التاريخ الملاذ المثالي لتهرب من هراوات الحاضر الغليظة التي تدق رؤوسنا بلا رحمة ولا شفقة، كان يجب

أن نأخذ نصيبنا من الزمن العابر الذي لم أستطع يوما أن أفقه حقيقة العابرين فيه قبلنا أو حتى معنا أحيانا، مثلا لماذا يجب أن يكونوا باهتين لهذا الحد، لماذا يجب على امتلائهم الكثيف أن يحولهم فجأة إلى أناس من قطن، يتلوثون سريعا إذا خالطهم أي سوء؟ أريد أن أمد يدي للعابر وأقنعه أن يُصافحني دون أن يخاف على روحه من التلوث أو الانصهار، أريد أن أفتح نافذة بيني وبينه وأستقبله بذراعين عاريتين من كل عتب أو تعب... هاك يا أخي فلنكن سعيدين لأن النافذة لم تتحول بعد إلى جدار ولتصافحني ولتعانقني وأقبل أن ألوثك وأقبل أن تُنقيني من كلٍّ أوجاعي يا أخي العابر فأنا بحاجة ماسة لمحطة نلتقي فيها جميعا ولا نستقل أي قطار ماضٍ أو آتٍ، فقط نكتفي بمحطتنا، نقبلها كما هي أولا، ثم نجعلها مكانا قابلا للعيش وإن وافقتنا الأقدار قد نُسميه "وطن".

كان الجواب كالتالي: "بتاريخ 17 من أكتوبر لعام 1961، خرج الجزائريون للتظاهر رافضين لحظر التجول الذي فرض عليهم فما كان من محافظ شرطة باريس موريس بابون أن أمر بإطلاق النار على المتظاهرين وإلقاء جثثهم في نهر السين"

كانت كل الأسئلة خاطئة، لم يجرؤ أحد على طرح السؤال الذي بدا جليا أنني أبحث عنه ولهذا لم يتفوق أحد على أحد. تفوق السؤال

أستطيع التباهي لأننا صمدنا لقرابة العام، إلى أن سقطت إنسانية أحدنا في فخ الأنا النرجسية واتهمنا محمد بالعلمانية والكفر ووصف زينب بالعاهرة على مرأى الجميع... لحظتها عرفت أن المرض قد استفحل كثيرا وما من سبيل سهل للخلاص سوى

العزلة، ألغيت كل ارتباطاتي بهم واستأثرت البقاء محايداً... لا يمكنني خسارة المزيد من الأشخاص، أُحس أنني أفقد أجزاء من جسدي، وأن إعاقتي ستكون كاملة بحلول العام القادم هذا على فرض أنني بقيت حياً طبعاً، أعتزف، أنا جبانٌ جداً قد أتكلم لساعات مع نفسي، وأُجري كل الحوارات الممكنة بحُججها المنطقية والدامغة ولكنني لم أتجرأ يوماً على إجراء هذا النوع من الأحاديث علناً، إن لم أستطع إقناع أخي فلا أحد غيره سيقنع أو يستحق أن أبدل كل هذا الجُهد لذا أثرتُ السكوت ليس لسببٍ وجيهٍ لدى البعض ولكنه بالنسبة لي سبب كامل ومُقنع لأجنب عقلي المزيد من الضوضاء والوجع .

عدت للبيت لا أحد بانتظاري، نجمة مُختبئة في حُفرتها الرطبة وجدتي لن تعرفني على الأرجح، جَرَبْتُ يوماً أن تفتح الباب وتُغلقه فقط لتتأكد إن كان ذلك الشخص لا يزال موجوداً ولم يتخلى عنك هو الآخر، هذا ما أعيشه يومياً مع يمة "ديهيا"، نقرت على الباب نقرأ خفيفاً فجاءني صوتها حَنوناً عَميقاً: أُدخل يا بني، لدي خبر سار لك، يا إلهي لم أعد الجندي الفرنسي، من أنا اليوم؟! دخلت عليها، قبلت يدها، وجلست قبالتها هات ما عندك يا يمة: اليوم ذهبنا أنا ووالدك وخطبنا لك كلثوم ابنة الجزائر، ما رأيك؟... عرفت أنها اشتاقت لأبي وها هو عقلها يُسعفها مجدداً لتستحضر وجوده، أحسدك يا ديهيا أحسدك على هذا المرض، اقتربت منها قبلت رأسها وتكومت على حجرها: أقبل أكيد، أقبل أن ألعب دور الابن فأنا بحاجة مُلحة لأم تحنو علي، أه يا جدتي، أنت تشبهين ديهيا، ستحرريننا كما فعلت هي، فقد شد الوطن وثاقي وأنا أكاد أن

أختنق، هلا حررتني... هلا أسعفتِ الوطن؟ نظرت إلي وكأنها فهمت ما أقول ثم قالت ألم تكتُب شيئا جديدا، عرفتني... هي الآن تعرفني، أنا حفيدها أستاذ التاريخ المُتلعثم الذي لطالما أنقذته من عصا والده ودافعت عنه كلما استلزم الأمر: نعم جدتي.

- إذن اقرأ لي آخر ما كتبته قبل أن يأتي عبد الله، تعرف أنه دائم الاستهزاء بك .

كيف أخبرها أن عبد الله لم يعد موجودا بيننا منذ ثلاث سنوات وأن كلثوم التي تزعم أنها ستخطبها قد ماتت حسرة على أختي الصغرى "رحمة" كيف أذكرها أن أبي سافر برفقة ليلى إلى المغرب وأنها رفضت الذهاب معهم، كيف أخبرها أنها اختارت الموت هنا، وقالت أنا لن أخون أجدادي الأمازيغ، كيف يرجع عقلها سيرته الأولى وكيف يستكين... كيف وكيف وكيف، ما الذي أحسد جدتي عليه، من غير المُمكن أن يطلب الإنسان نسيانا فيحصل على نصفه أحيانا يمتلئ الفص الأيمن وأحيانا أخرى يمتلئ الفص الأيسر أحيانا يفرغان معا وأحيانا يمتلئان معا كذلك، أنا حقيقة مُرتبك تماما بخصوص هذا، لكنني أستطيع الجزم أنه من المُربع أن يكون الانسان بلا ذاكرة والأدهى أن يكون بذاكرة مُشوهة ومُتداخلة التفاصيل كما هي حالتها، يُصبح العمر ثقيلًا جدا وكل محاولة بائسة لتجميع شتات الماضي من الأيام قد تأخذ العقل لحتفه الأخير... قررت أن أقرأ ما كتبته وأُبقي كل شيء على حاله فذاكرتها لن تحتل أمورا معقدة لهذا الحد حسنا أصغ جيدا يا يمة، حاولي أن تسمعي بأذان القلب لكي تفهمي ما أقوله: "أنا حجر الرحي الثابت، يفرك الآخرون تفاهاتهم علي ويمضون ليأتي

غيرهم وغيرهم وغيرهم، ليس ذنبهم إنه كله ذنبي أعترف ولكني لطالما رجوت يد القدير أن تخفف وطأتها لأستجمع قواي وأستقبل الوافدين الجدد، بكل ما فيهم من قبح وشر... أراهم هكذا، بل أكثرهم هكذا، الخيرون لا يمكنهم أن يصنعوا ذلك الفارق الذي ينقصني... ولكن أثرهم باق ولا أعتقد أنه سيزول.

- أنا حجر الرحي المنسي... يتهافتون ويتقاتلون، يسقط البعض على حوافي فاقدًا فرصته... ويبقى الآخرون في الصميم، وأنا أتضرع أن تخف يد القدير وتهدأ قليلا فقد وهنت أنا حجر الرحي الثابت باق... إن عم الخراب أو حل السلام، أنا باق بانتظار بذوري الجيدة، أنا الجزائر".

- جيد يا بني.

- وكيف عرفت أنه جيد؟

- عندما قلت أنا دزائر... وطبعت قبلة على جبيني وبكت بحُرقة...
- آه يا يمة "دهيا" لو أنهم يحملون بقلوبهم ثمن حبك لهذا الوطن لما حدث كل هذا، يا بلدي أنا متأسف لا أملك إلا أن أقول أنني متأسف، فها أنا ذا أمامك، ضعيف، مكسور وخائف، لا أعرف إن كنت لا تزال على حبك لي، أم أنك تبرأت مني ومننا جميعا وأدرت لنا ظهرك تاركا إيانا خلفك يتامى، عُراه جوعى، جزعى ومذلولين... ها أنا يا بلدي، لا أعرف كيف وصلنا إلى هنا ولا كيف بدأنا، لا أحد منا توقع حدوث هذا كله لم تخرج الأمور عن السيطرة كما تحدثت وسائل الإعلام الغبية ولكننا عرفنا حقيقتنا التي لطالما هربنا منها وأنكرناها، ها أنا يا بلدي أقف، أجول بعيني في سماءك الواسعة ولا أكاد أرى شيئا الدخان والغبار والأرواح الصاعدة

أفواجا وزمرا، حجبا عني الرؤية، لا... أنا أكذب مجددا، ما أعنى بصيرتي حقا هو الخوف الخوف مما هو آت والخوف مما لا يمكن تحمله، هذا العدو يا بلدي تربي منا وفينا، كان يوما أبا ويوما أبا ويوما آخر حبيبا و أغلب الوقت صديقا مقربا فكيف استحال عدوا، لم أعد أدري!! أدور وأدور على نفسي، أنا لن أجن الآن، أريد أن أعرف ما الذي حدث بالضبط وبعدها لا بأس بالجنون، يا بلدي هل حقا صار الدم بأوعية أبنائك ماء؟؟ وهل هو ماء صاف رقرق أم أنه ضحل عكر؟؟ هذا لن يشكل ذلك الفرق الكبير على ما أظن.

أه يا بلدي، من أشعل فتيل هذه الحرب؟ لا تريد أن أسميها حربا، حسنا لنغير التسمية مترفين بك، لنقل أنه سوء تفاهم اضطراب داخلي، سنسيطر عليه حتما في الغد القريب، لنسمه ما شئت ولكن... فقط لو أنني أعرف القاتل، لغرست أصبعي بعينه فهو أساسا لا يرى ولن يحتاج لعينين مادام قد أوجد طريقه وسط هاته العتمة الباهرة، أريد أن يقف القاتل أمامي مباشرة، وأن أكون كريما معه فأعطيه فرصة للدفاع عن نفسه، سأستمع له جيدا ولكنني لن أتوانى لثانية في طعنه، لن أفكر في الأمر على أساس أنه جريمة ولا أنه انتقام، سأفكر فيه على أساس أنني استطعت لأول مرة التغلب على أحد أكبر مخاوفي وقيمت بالمطلوب... الكل يعلم أن القاتل لا يموت مبكرا على الأقل ليس قبل أن ينسى عدد قتلاه، عندما تسأله: كم قتلت فيجيبك لم أعد أذكر، لحظتها سيكون مستعدا للموت لأنه أدى واجبه كقاتل وأصبح عدد قتلاه لا يُحصى.

إن أهم ما خبرته في هذه الحرب الشنيعة، هو أننا أشرار بالطبيعة، وأن فطرتنا لم تكن سوية يوما كما الآخرين، وُلدنا بلوثة سوداء في قلوبنا وسرعان ما تضخمت وكُبرت فظهرنا على حقيقتنا، ها نحن الآن ندخل زمنا جديدا، زمن البطش والذل والظلم، زمن المساومات، الخاسر الأكبر فيه هو الذي لا يجد في جُعبته ما يساوم عليه لو أن لي الحق في اتخاذ القرار، لما اتخذت أي قرار مناسب، فلا مناسب لهذا الزمن، ماذا تتوقع أن يحدث وأنت تُصدر قرارا بسجن كل المذنبين... هل هذا قرار صائب، مهلا لُنُسي الأشياء بمسمياتها، من هم المذنبون يا ترى؟؟ الذين وُجدت بصماتهم على المسدسات، أم على الخناجر، أم تُراها على رقاب القتلى؟؟ أظن أن المذنبين الحقيقيين يتكون بصماتهم على الأوراق المهمة التي نحمل إمضاءات عديدة وكلاما قليلا وغير مفهوم عادة يبدأ بالجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية وينتهي بالجزائر في تاريخها الأغبر أيا كان اليوم سيكون مثل سابقه لا محالة هؤلاء المذنبون الذين لا يُمكن أن نعرفهم ولكننا نعرف شرهم، فهو الآن ساري المفعول في كل شبر من هذه الأرض، هل أقول "الطاهرة" حقا لم أعد أدري.

لا أحد منا كان مُستعدا لكل هذا، ولكننا تحملناه وتقبلناه بل وتعايشنا معه، لم يكن سهلا أكيد ولكن من الواضح أننا لا نفشل في تحديات مماثلة، ليس صبورا بقدر ما هو موروث جُبلنا عليه وتعودناه، لن تنجلي هاته الأزمة مبكرا، كما أن أثارها ستبقى في جيناتنا في تكويننا، مع كل مولود جديد، سيبرز جينوم يعمل عمل صفارة إنذار لكل ما يمكنه أن يُحدث نفس الضرر، لنسمه جينوم

"الخوف"، هذا ما ستورثه لنا هذه الأزمة جيلا بعد جيل، وبصفتي أستاذ تاريخ، لا ينبغي أن أتحدث في أمور تبدو علمية للوهلة الأولى، ولكن ماذا تكون الوراثة إذا لم تكن هي التاريخ نفسه، بصفاته السائدة والمتنحية وطفراته التي لطالما أهرتنا وتحدثنا "أنتم لا تعرفون شيئا بعد"، ما هو الفرق بينهما؟ إننا في هذه نتحدث عن الجينات وفي تلك نتحدث عن الأحداث وكلها تنضوي تحت جناح الانسانية ومسارها الممكن والمتوقع، إذا لم تُفاجئنا الطفرات طبعاً والأزمة في الوراثة هي كل جينوم مجهول لم تُفك شيفرته بعد، وهي نفسها في التاريخ الأزمة في كل مجهول فرضته ظروف مُعينة ولا مخرج يلوح في الأفق، على الأقل في سنواتها الأولى إن ما حدث بالفعل، أننا استسلمنا سريعا لهذه الأزمة إذ تقبلناها، سمحنا لكل شيء أن يعبر من خلالنا ويمضي دون أن نفعل الشيء الكثير...

الحلم الذي راودني لم يكن حلما عاديا، كان حقيقيا جدا أراني الله مستقبلي بعد أن فقدت إحدى عيوني "أمي"، بينما كانت العين الأخرى التي مثلت "الوطن" في طريقها للزوال... كانت تلك الحقيقة الوحيدة، أما الباقي فكان أضغاث أحلام... أضغاث حياة وبعضاً من ندم.

نحن الذين لم نطلب من الحياة غير حفنة أمان، أيُعقل أن يكون هذا طلبا صعبا لهذا الحد، حقيقة لا أعلم ولكنه يبدو مُستحيلا في الظروف الراهنة، إذ يحكمنا منطق السلاح والدم الدم؟! كيف يمكنني أن أعرفه؟ قد أعرفه على أنه رابط وصلّة وقد تُصبح الصلّة حبالاً يشنق أو سوطاً يجلد... قد أعرفه كذلك

على أنه ضرورة لنستمر أو ننتهي فلا فرق... وقد يكون الدم وطننا
يُنكر أبناءه ويرممهم بالبارود والحجارة... أنا أجهل حقيقة الدم
ولكنني متأكد من حقيقتنا المُنْتنة، نحن القاتلون والضحايا ولا
أحد منا بريء مما يحدث .

عندما رفضت "ديهيا" تفسير حلمي، أيقنت أن كارثة ما على
وشك الحدوث وحدثت كلينا بالأمر السيئة أبدا لا يخطئ! بحلول
الكارثة وجد عقلها طريقة لتجاوز الأمر، الزهايمر كحل جذري
وبقيت وحيدا أعاني.

الفصل الخامس

آخر الخسارات أفساها!!

"لا تقبلوا بالقبح يا أهلي مكافأة على الصبر الجميل
فالصبر طول العمر خير من خلاص كاذب
ما فيه من صفة الخلاص سوى اسمه "

تميم البرغوثي

لم تظهر نجمة منذ يومين تقريبا ولأنني تعب بما يكفي، لم أعد أملك القدرة لأواصل الحديث مع أشخاص وأشياء لا تتجاوب معي أبدا، جدتي، نجمة، طلابي وهذا الوطن، توجهت للتينة بحثا عنها ولكنها لم تكن هناك، بحثت في كل مكان، ثم لشدّة يأسِي ارتأيت أن أسأل جدتي وأنا متأكد أنها لن تساعدني بالشئ الكثير، فتحت الباب، رأيت جدتي تبكي، ما بك يا يمة لماذا تبكين؟؟

- يا ولدي رحمة ابنتك، لم تُسلم علي، كلثوم لا تربها جيدا.

- أين رأيتها يا يمة؟

- منذ قليل، دخلت تحمل بين يديها شيئا بدا كسلاحفأة، لم تُحدثني حتى وانصرفت للخارج.

- مع أن كلام يمة لا معنى له إلا أنني أثق بكل ما تراه وتقوله رفعت الغطاء عن طرف سريرها، انحنيتُ على ركبتي فوجدتها ساكنة تماما وفارغة جدا، لقد بدت ميتة، نقرتُ بأصبعي مرتين على قوقعتها، حتى أظهرت رأسها الصغيرة وكأنها كانت تُعاتبني إذ أنني أفرعتها ليلة أول أمس فهرعت لتختبئ بحُضن جدتي برويتها كذلك اتخذت قراري، سأعطيها لابن الجيران الذي لطالما أَلح أن يأخذها ولو لبعض الوقت، سيعتني بها حتما أحسن مني إنني أهملها أكثر من اللازم، هي تحتاج لطفل يُذكرها ب "رحمة" من تُراه يحتمل كهلا قاتماً وكثيبا مثلي، يجر قدميه في الفناء جيئة وذهابا بلا أي فائدة، حتى السلاحف لم تستطع هذا فكيف باستطاعة أمل، إنها حقا مُعجزتي لهذا الزمن.

الليلة الأولى بعد "نجمة"، إنها قاسية وكثيبة لا يمكنني إنكار ذلك، بالرغم من أنها لم تحدثني وأجزم أيضا أنها لم تسمعني ولم

تأبه بي حتى ولكنها كانت تُشاركني تفاصيل يومي دون تبرم أو ملل، بطريقة ما كانت تُذكرني بحياةٍ كدت أن أنسى ماكنته أو ما عِشْتُهُ فيها، رحيلها عني اليوم كسرتني وكسر كل رابط قد يُعيدني لذلك الماضي الجميل، منذ الليلة أنا رجل معطوب الذاكرة ليس لأن نجمة كانت بتلك الأهمية ولكن لأن حياتي كلها أصبحت بلا قيمة تُذكر، على ما يبدو فليلى مُحِقّة تماما " ما الذي أفعله هنا؟؟ ما الذي قد يُضيفه بقائي لهذا الوطن الذي تخلى عني تماما وأنا في أمس الحاجة إليه، كيف يطلب أن أُسْعِفَه وهو الذي أفلت يدي وسمح للهوة السحيقة أن تتلغني كما الكثيرين ولماذا قد أكون بتلك القيمة لا شيء يُميزني عن غيري كل ما نفعله هو طرح المزيد من الأسئلة لماذا وكيف وحتى متى؟؟ سؤال واحد لا نستطيع طرحه هو "من؟" ها أنا ذا هُزِمْتُ أمام السؤال مجددا، للمرة المئة أو الألف لا يهم مادامت هزائعي كثيرة ومنتالية، لن أنام هذه الليلة أيضا على الأقل عندي سبب قد يبدو مُقنعا لثلا أفعل، أردت أن أبكي ولكن الدمع كان عصيا تمرد علي هو الآخر، حتى جسدي لم يُعَدُّ يطاوعني فياله من مأزق!!

لا يُمكن للرجل الوحيد أن يكون تفاعليا أو اجتماعيا، لا يُمكن له إلا أن يكون رماديا وخافتا ولا يقول شيئا بينما يسمع كل أنواع الأصوات تخترق جمجمته لا أُذنيه... حتى النملة المارة علي أطراف نافذته الموصدة بإحكام يصلُّه دبيبها، ليس الأمر بيده، لكن كل ما يُمكنه فعله هو أن يستلقي ويُفكر بطرق موته الممكنة، أنا هنا لا أُجيد التدخين، فاشل تماما في إدارة ليلي الطويل هذا، كل ما أستطيع فعله هو مشاهدة الأخبار وإحصاء عدد الموتى لهذا اليوم

في دفترى الكبير، لا أدري ما هوياتهم ولكنهم كلهم انقطعوا عن الحياة في وقت واحد وهذا ما يهمني تحديدا، أنا أضيفهم لقائمة المُتخليين عن هذا العالم، عنا!! والموت ليس قاسيا على فكرة، الموت في وقتنا الراهن رحيم، لأنه يُجنبنا خسارات كبرى، تقتلنا مرارا ولكننا نتنفس بطريقة عادية بعدها ولا تكون جثثنا مستلقية بل واقفة تُهرول مفتوحة اليدين والعينين، "بدلناهم جلودا غير جلودهم"، هذا ما يحدث هنا هل هو الجحيم؟؟ هل هذه حياتنا الآخرة ونحن لا نُدرك ذلك بعد؟؟ ولكن مهلا، لم نكن مُلحدين ولا مُشركين، نحن نؤمن بوحداية الرب، تماما كما نؤمن بعظمة بؤسنا في هذا الوطن.

حينما لا أجد ما أفعله، أجلس تحت التينة وأتأمل الغيوم وهي تتحرك في خمول إذا ما كان الجو صافيا، وأتبلل بحبات المطر في الأيام العاصفة، أجاهد لأفري عقلي فلا يكون بوسعي التفكير في أي شيء، أتنفس بعمق كما يفعل مُمارسو اليوغا والحمّالون في الأسواق، أحاول كي أبقى صامدا في وجه هذا الوقت الكافي لكل فعل مُمكن إلا للحياة، ولكن هذه المرة قررتُ العكس، جلست على الحافة المزلجة أستنشق الهواء الذي ما عاد نقيا أبدا منذ زمن، كل ما احتجته هو أن أعترف بألمي، أن لا أتجاهله، هذا ما كان ينقصني لأواجه خساراتي بكل رضا وحزم، كان على أحدنا أن يستمر وللأسف ذلك الأحد كان أنا لسبب لا أفقه الحكمة منه طبعاً.

ليلة أول أمس، لا أعرف ما الذي حدث بالضبط، لما أقبل الصباح كنت قد هدأت تماما ولولا شظايا الزجاج المهشم والأوراق المتناثرة في كل ركن من الغرفة لما تذكرت أي شيء بمشقة فركت عيني "كانت ليلة طويلة لا بد لي من فنجان قهوة" وهكذا عاد كل شيء إلى طبيعته وكأن أمرا لم يكن، لو أنني تركت الأمر يهزمي لما استطعت التخلص منه، ببسالة ووفاء قاومته، لم أقتله وإنما قبلته كجزء مني كما هي يدي أو أذني قبلته ليس كعيب خلقي أحمله وأتعايش معه وأخجل منه، لم يكن كذلك أبدا فالجميع كانوا مثلي يحملونه أينما ذهبوا بشق الأنفس على عكسي أنا الذي لم أعد أعتبره عبئا حدثت نفسي "يا إلهي ما أرحمك فهذا الرجل الذي يقف الآن بالمطبخ يُعد قهوته ويدندن أغنية نسي معظم كلماتها هو نفس الرجل المهزوم بالأمس، الرجل الذي بكى وصرخ وحطم كل ما كان في طريقه ثم مشط الفناء لقراءة الساعتين دون توقف... إنه اليوم رجل ممكن ومُحتمل، وما كان ليصبح كذلك لولا مواجهته الضارية بالأمس... يا إلهي كم أنا أحبك ولكنني لا أفهم السبب الذي يجعلك تسمح بحدوث كل هذا، فأنت القوي ونحن الضعفاء ثم فكرت قليلا وقلت وأنت العليم والأعلم كذلك" وشربت قهوتي التي لم تكن كافية لجعلي أستيقظ، مشكلتي أنني لم أكن إنسانا تافها لأقبل يومي السخيف دون أن أحس بمرارة وغصة لست عاديا لأترك الأمور تمر من خلالي دون أن تُحدث ذلك الثقب، أنا إنسان سريع العطب، لم أكتفي يوما بالمُسوم لي من ألم بل ذهبت دائما إلى أعماق نقطة يُمكن أن أصلها وسألت: هل يُمكن أن أخبر ما هو أعماق... الألم يُعلمنا الصبر ولا يُعلمنا

اللامبالاة، أولئك الذين يدعون اللامبالاة هم في الحقيقة ضعاف أمام الآمهم لأنهم لا يُحاولون فهمها ولا يستطيعون التعايش معها وفي أول مواجهة لهم مع الحقيقة ستتجلى هشاشتهم بوضوح مُحبط، لكنني في هذا الصباح أردت أن أكون إنسانا لا يبكي ولا يُقضب جبينه ولا يُشيع بنظره عن لون البهجة مهما كان باهتا جلست وسط حطام أمس وراقبت كم الخراب والألم الذين لفظتهما خارج روحي، ها أنا ذا لست سالما تماما من الخدوش ولكنني على الأقل لم أنكرها ولم أتركها كما هي، لتوي نظفت الجلي منها ببعض القطن و الكحول ... وأخيرا أنا رجل يهتم... عموما لا أملك القدرة لإبصار الضوء في آخر هذا الوطن، ولم أمتلكها يوما غير أنني في الماضي القريب كنت مشغولا عن هذا بكثير من الحب والرحمة، كان صدر أمي يبتلع كل غصاتي دون مُماظلة هذا ما جعلني أتقبل كل بشاعة طارئة أما وقد غابت فلا أحد ولا شيء يقدر أن يُخفي النار بالغربال فجأة لمعت في رأسي المثلث بالمهدئات والأحداث اللأمنطقية والشعر الكثيف، خصوصا هذا الأخير فهو يُسبب لي أزمة أينما ذهبت فأكتفي بتوضيح سخيف "لستُ منهم لم يتسن لي الوقت لحلقه وحسب"، كان هذا الجواب أليا، ثم بعدها لم اعد أكثر، أتجنب الإجابة وأمضي، المهم أنني قررت دفن كل دفاتري التي دونت بها عدد الوفيات لكل يوم أو ربما دفن الماضي، لا يهم ما أردته حقا فهذا لن يُشكل فارقا كبيرا المهم أنني وجدت ما يمكنني فعله أو تغييره في هذه الحياة وحرّي بي أن أبتهج!! لكن ألا يُفترض أنني حزين؟؟ "كُن فارغا" هكذا حدثت نفسي وزجرت كل تلك الأسئلة، إنها أسئلة المرحلة الراهنة تقودني

وتقودنا جميعا للجنون، لا تنتهي أبدا ولا تستكين، تتوالد كالفطريات، أكاد أراها على جمجمتي كلما حدقت بالمرآة، أعرف أن الكل يراها ولكن خوفا من أن تُتهم بالجنون يمنعنا من الاعتراف بهكذا أمور وما هو الجنون إن لم يكن كل هذا؟ على الأرجح هذه ليست فوضى، ما يحدث الآن هو أكثر حالة مُنظمة ودقيقة عاشتها البلاد، واقع الحال يُظهر أنها فوضى، الأحداث تقول أنه نظام.

يوم بارد من شتاء عام ألف وتسعمئة وتسعة وتسعين الساعة تشير لتمام السابعة، محاضرتي في تمام الثامنة وكان لابد لي أن أستيقظ حالا وأسرع بتجهيز نفسي أقله إذا أردت اللحاق بالباص، يظنني الناس معتوها أو ربما أنا حقاً كذلك سيارة عبد الله وسيارة والدي مركوتتان منذ أن غادرا ولا أستعمل أيا منهما، لأنني ببساطة لست مستعدا لزيادة انتظارا آخر لقائمة الاحتياجات الأساسية الحرب على البنزين فاقت الحروب الإيدولوجية الطاحنة بهذا البلد، أما موعد المحاضرة فتلك قصة أخرى، حسنا لن أذهب، إن هذا الاستيقاظ المبكر من النوم هو مجرد حالة عبثية أخرى، لماذا يجب أن نترك دفاء أسرتنا ونمضي لنقابل عالما على هذه الدرجة من البشاعة، من سن لنا وقتا للاستيقاظ ووقتا للخروج ووقتا للنوم حتى، ألا يجب أن يكون هذا بحسب ما نريد ونهوى ونستطيع... كيف يُمكننا أن نكون سُعداء ونحن نضبط المنبه يوميا على نفس الساعة وبنا خوف أن لا يرن، هل نعيش في ثكنة عسكرية أو ما شابه، ما العيب إن استيقظت في تمام العاشرة أو بعد الزوال طالما أنني لم أنم إلا بحلول الصباح، لماذا يظن الآخرون

الذين استطاعوا الاستيقاظ مبكرا أنهم أفضل مني، وينعتونني بالكسول، بينما أبقى مُستيقظا اللَّيل بطوله ولا أصفهم بذلك أم لأني خرقتُ التوقيت ولم أضبط أي منبه فاستيقظت حالما تيقنت بضرورة ذلك، حتى النوم أبسط الأشياء وأكثر حاجات الكائنات الحية ممارسة أصبح مُعضلة في حد ذاته، الساعة الآن تُشير لتمام التاسعة والنصف صباحا، أنا مُستيقظ منذ فترة وجيزة فقط ولكنني مُلزم بكتابة هذا قبل أن أخرج لأن هذا النوع من الالتزامات هو ما يُبقيني كائنا قادرا على إتمام يومه بسلام، أجل يُمكنني القول أنني كائن مُستسلم لا يُبدي أدنى مُقاومة لما حوله ولكنني على الأقل أعيش استسلامي هذا بعيدا عن كل مُراءاة أو تظاهر مُعتقدا اعتقادا جازما أن الاعتراف هو أساس كل راحة أحيانا كثيرة أتساءل: لماذا يُحب المرء أن يكون حيايدا عندما يُحس بالضعف، فلو كان قويا بما يكفي لأتخذ موقفا واضحا يُخوله لأن يكون أبيضاً أو أسوداً إذ ليس في عالمنا أي ألوان بهجة أو هكذا أراه على الأقل، الألوان المختلطة لا تعكس الرؤيا ولا تمتصها كذلك... عندما يكون المرء حيايدا فإنه يكون قلقا جدا وأكثر ما يكون شوقه لأن يتخذ موقفا ثابتا ولو كان هشا، فجا وبلا قيمة ولكنه موقف لا يدفعه للتباهي بقدر ما يضمن له لفظ هذا العبث خارج عقله.

أفتح باب كهفي وأهم بالخروج، تسقط قطرة باردة على جبتي يا إلهي مطرٌ مجددا، مهلا قطرة أخرى إنه لزوج.. إنه أحمر... ليته كان مطرا... إلهي حوِّله لمطر... بجزء من الثانية أفكر بهذا كله أتقدم خطوتين في الوحل ولكنني لا أغرق مثل الجميع أنا أنجو

دائماً لأنني عندما أندھش يهرب مني الزمن دون أن آبه بتفاصيله الأكثر تعقيدا وفتكاً، دون أن آبه بالممكن حدوثه وباللأمكن الحدوث، دون أن أكون مُعترضاً على الحياة ولا على الموت لهذا أنجو ولهذا رغم قصر حيلتي أُلْفِظُ مراراً خارج الدائرتين معاً الدائرة البيضاء لا تُريد جباناً مثلي ودائرة السوداء لا تُريد نقياً مثلي، فأبقى بلا أي انتماء أو هوية... لم يكن مطراً كان دماً، رفعت بصري... بعدها بدا كل شيء ضبابياً ولا يزال...

فتحت عيناى ببطء وكسل، كل شيء مُتداخِل، تناهت لسمعي أصوات كثيرة لم أسمع منها أي مألوفٍ للأسف وأناس كثر لا أحد منهم معروف كذلك... وسط كل هذا أنا وحيد مجدداً، ثم رجعت لذهني آخر صورة رأيتها، إلهي فليكن هذا كابوساً، لا يجب أن يكون الأمر سيئاً لهذا الحد، إلهي أنا آسف على كل ذنب وكل خطأ اقترفته عن وعي أو عن جهالة، إلهي أنا عبدك فقط لو يكون هذا كله كابوساً، اجعله كذلك أنضرع إليك... شقت دمعة ساخنة طريقها على خدي أعادتني قليلاً لجادة الصواب... ما الذي أفعله؟ هل أعقد صفقة مع الإله؟ هل أصبحت مثلهم؟ لا لا لا لا... آخِر ما وعيت به ممرضة تدخل حقنة بوريدي وينطفئ كل شيء.

كانت رأساً آدمية تتقاذفها الأقدام، كنت أجري من هذا لذلك محاولاً انتشارال الرأس من عذابها الطويل... ألْهَيْتُ أركض أصرخ.. ها أنا انتشلتها من بين أقدامهم، لقد أنقذت الرأس، ها هي بين يدي.. مهلاً إنها ملامح أعرفها، إنها عيون أخي، رأس عبد الله.. لفوا حبلاً حول رقبتى... حملت دليل الجريمة بين يدي أشار لي أصحاب الأقدام على أنني الجاني... صدقهم الجميع... صرخت: لكنه أخي!!

هز الشرطي رأسه: قابيل جديد معنا؟ لقد قتلوا أخي وتقاذفوا رأسه... أنا برئ أنا برئ... فتحت عيني... الحمد لله كان كابوسا...

- أجابتنى: نعم حمدا لله .

- منذ متى وأنا هنا؟

- منذ يومين.

- أين أنا؟

- في الجحيم وابتسمت.

- لست أمزح، أين أغراضي؟ وكيف وصلت إلى هنا، بأي مشفى نحن؟

- حمدا لله رأسك يعمل وهذا الأهم، لا تزال قادرا على طرح أسئلة منطقية.

- أحضري لي أغراضي لو سمحت.

- لست خادمك الشخصية، أنا ممرضة، مهمتي أن تبقى هادئا فلسنا بحاجة لمزيد من الصراخ والفوضى، فهمت؟.

- غادرت وهي تستشيط غضبا، ما الذي قلته غير أنني طلبت

أغراضي، الجنون بلغ ذروته والناس لا تطيق نفسها حتى، هذا

طبيعي، كم أنا أبله، فجأة تذكرت قطرة الدم... تذكرت الصورة

الأخيرة قبل مجيئي إلى هنا، على باب بيتنا.. يا إلهي لطفك لا بد أنني

تحت وقع مخدر ما... أنا أهلوس... أنا مجنون، لا بد أن أكون

كذلك، هذا غير معقول، لن يبلغ الأمر هذا السوء، يا الله ارحمنا!!

ثم أغمضت عيني، الصورة نفسها، لا تغادر مخيلتي أدركت

لحظتها أن ما حدث كان حقيقيا ولا سبيل لعقلي لمهرب هذه المرة

فقد أصبح الأمر واضحا تماما... كان رأس أخي عبد الله معلقا على

باب بيتنا، هذا هو الكابوس الذي لم أستطع جعله يتحول
لخيال... أو لهلوسات أحبسها بجمجمتي وحسب... إنه حقيقة
جلية تماما ويجب أن أقبلها كما هي أو أختار جنونا يليق بنكبتى...
عبد الله اتخذ القرار الأصعب، لقد تخلى عنا... عبد الله اتخذ
القرار الأسهل تركنا، عبد الله أخي لم يفعل هذا بنا عمدا لم يكن
يُدرِك أنه يختار أقصر الطرق لموته، أو ربما كان يُدرِك ولكنه تحلى
بالشجاعة التي كانت تنقُصنا وغادرننا، بادئ الأمر كُننا نعتقد أن
الأيام سترُجعه لنا وهذا ما لم يحدث مُطلقا.

إذن، استطاع عبد الله أن يحصل على قبر كامل بناء على طلب
عمي الذي كانت حُجته أنه إن حصل ووجدنا باقي الجسد فما
عسانا نفعل، لم يكن صعبا إقناع الإمام فما زال لاسم أبي هيبته
في هذا الحي، حصل أخي على قبر كامل لجثة غير كاملة أعطته
الأرض السخية شبرها كاملا وسرقت أحلامه وشبابه وهذا حري
بالاحتفاء وقفنا أنا وعمي، حضننا كل الناس إلّا الأقربون
المُبعدون، إذن هكذا هو الأمر، يجب أن أتصنع الجلد أتلقى
التعازي لكن من سأعزي أنا؟! رُبما يُعزيني أن أكون أنا فخارج هذا
الجسد الفوضى عارمة، العالم بضجيجه المعتاد وأنا هادئ تماما
أبحث عن مخرج، يُخيل إلي أن الجميع يتراخضون يتلاهنون
يتصادمون بينما أبقى هادئا أراقب هلعمهم الكبير من أن لا
يلاحظهم أحد، أفضل أن أستمع كثيرا وأن أبقى متماسكا مهما
حدث... حتى وقت هزيمتي لا أسمع لصوتي أن يخونني ويرتجف
أومئ برأسي ولا أنكمش مهما انخفضت حرارة قلبي... لم أكن هكذا
لزمنا غير بعيد ولكنني تعلمت أن أبتلع ريقى كلما واجهني العالم

وأصمد... هذا العالم الذي لا يمنحنا فرصا كثيرة يستمتع برؤيتنا نتهافت لنسرق البريق من أحدنا ونحتفل بمجدنا القصير من أجل آخر... لكنني هادئ لا يهمني إن وصلت أولا أو إن وصلت آخر المهم أن أصل كاملا ومعروفا لا أرتدي أي قناع قامتي منتصبه وصوتي واضح لا يشوبه أي خجل... لحظتها سيعترف العالم أن ذلك الشخص الوحيد هناك والذي لم يُقدم أية تنازلات هو شخصٌ فظيع جداً ولكنه يستطيع البقاء طويلاً دون أن يتماهي أو يفقد جنسه وهذا الاعتراف يكفي... غير ذلك أنا أفضل أن أبقى هادئا وقويا حتى ولو لم يسألني أحد عن رأيي يكفي أنني أعرفه أنا... هذا الهدوء هو ما يجعلني كائنا مُحتملا وقابلا للحياة بمعناها الصحيح. كانت زوجة عمي تُعد القهوة بينما خدم ابن عمي المُعزين وتولى عمي الإجابة عن أسئلة المُتطفلين التي لم يكن منوطا بي أن أعيدها أي اهتمام، لقد أزاحوا عني حملا وحده الله من يعلمه لهذا قررت أن أكون كريما معهم لأقصى حد، كانت يمة دهبيا تبكي بلا توقف ولم يكن بوسعي أن أمنعها ولا أن أواسيها بطريقة ما كنت سعيدا لأن أحدا بكى عبد الله في هذا العزاء الذي ليس له من العزاء إلا اسمه .

طلبت زوجة عمي أن تأخذ جدتي معها ولم أمانع، لأنني لم أكن قادرا على الاعتناء بها كما يجب، أعطيتهم بعض المال الذي أحسست أنهم في حاجة ماسة إليه مقابل مكوثهم معي طوال العشرة أيام الماضية، كانوا كريمين جدا وتمنيتُ لو أعطيتهم كل شيء وأعود دافئا مثلهم.

ها أنا مجددا، وحيد تماما كرجل مجذوم، كان هناك أناس كثر يملؤون المكان ثرثرة وأمنيات ولكنهم رحلوا، وبقيت هاهنا لا أنتظر أحداً آخر غيري... أريد أن أعود لي بحيثُ يكفُ هذا الطائر العنيد عن نقر جدار ذاكرتي مُحدِثاً كل هذه الثقوب... النور عدو الذاكرة، يجعل كل شيء أبيض وباهت فيختفي الجميع بمن فهم أنا وأنا هش ووحيد ومُعتم ولا قُدرة لي على البدء من جديد... أريد أن أستردني بكل ما كنت عليه وأقبلني كما أنا وأعيش ما تبقى لي وأنا معي، يدي بيدي وقلبي على قلبي وأنا أُحدثني بكل أريحية عن الممكن والمستحيل دون أن أشعر بأي خجل من تفاهتي، ثم أشرب كأس ماء وأنفجر ضاحكا مني لأنني ابتلعت ذبابة دون أن أنتبه، أن أعيش مع نفسي ذلك السلام الذي يُغنيني عن الجميع وأثرثر وأهذي حتى أرى الشمس فأحتضني وأنام لأن ليلا طويلا قد مضى ونهارا لا يعنيني على وشك البدء.

نقطة الدم تلك كانت نقطة النهاية لي مع هذا الوطن كانت القطرة التي أفاضت الكأس، كنت أتساءل دوما عن ماهية القطرة الأخيرة التي تتحمل العبء وحدها، ما شكلها، لونها حجمها توقيتها... هل من الممكن أن يكون وقتها اعتبارا، وكيف للقطرات اللائي سبقتها أن ينزلن بردا وسلاما بأعماق الروح دون أدنى أثر يُذكر وتحمل هي أوزارهن كاملة... عرفتها كانت قطرة حمراء لزجة باردة وقاسية، نزلت ذات صباح شتائي قارص ووضعت نهاية للإنسان الباحث عن إنسانيته الذي كان يكبر بداخلي رغم الدمار والخراب والفوضى، مات هو وبقيت أنا باحثا عن موت رحيم... فاخترت المنفى إلى حين استعادة الوطن.

في الوثائقيات، أو في حياتنا الواقعية أو في الحكايات الأولى لبيدائتنا كبشر، دائما نرى الغراب يدفن أخاه ولكننا لم نره يقتله، فتعلمنا منه الدفن ولم يتعلم منا القتل، ومنذ الأزل كان كل ما فعلناه مبررا، وكان كل ما فعله مُهرا، الغراب يعرف الكثير ونحن لا نعرف إلا حقدنا، نوزعه كلما بلغ نصابه الدموي وندفن الضحية شاكرين الغراب لا الله على نعمة العقل.

وضعتُ الرسالة عند موظفة الاستقبال بالمشفى وأخبرتُها أن تسلمها لأمل بعد يومين، لم يكن هذا مجانيا ولكنني أعرف حال البريد، لهذا فضلتُ هذه الطريقة .

- "العزيزة أمل، عندما ستصلك رسالتي سأكون قد غادرتُ أرض الوطن... كل ما أطلبه منك هو المغفرة لأنني لم أستحقك يوما ولكن كوني على يقين أنك المرأة الوحيدة التي استطاعت أن تلمس شغاف هذا القلب ولكنني للأسف جبان أكثر من اللازم وهذا لسوء حظك، المرأة الوحيدة التي رأت كل سوادي ولم تجفل، المرأة الوحيدة التي لم تتعب يوما من دفعي للحياة بينما كنت أقتلها في كل مرة وأنا أفضل عُزلي عليها، وأنا أنعم بوحدتي بينما كانت تبحث جاهدة عن طريقة لبعث الحياة بهذا الكائن الذي ضاق الجميع ذرعا به حتى السلحفاة نجمة إن اعتبرناها جزء من العائلة، كل ما أطلبه منك أن لا تنسيني، أريد أن أحيأ بطريقة أخرى، تليق باسمي في دفء قلبك.

العزيزة أمل، إن حدث وأردت رؤية يمة ديهيا هي عند عمي
والعنوان مُسجل على ظهر الرسالة .

أخيرا إن استطعت أن تقدمي لي معروفا لآخر مرة في حياتك
سأكون مُمتنا، أوصيك بدفاتري، دفنتها تحت التينة، كما أنني لم
أغير قفل الباب، قد تبدو للوهلة الأولى مجرد جداول إحصائية،
إنها دراسة أكاديمية لمؤشرات الموت خلال هذه السنوات، فقط إن
غالتوا في الأرقام، سلمي هذه الدفاتر للشخص المناسب وحسب .

العزيزة أمل، أحبك" يوسف، مع المي

صمت عمي طويلا ثم قال مُبررا بطالته: "لا أعرف أن أعمل أي
شيء آخر غير تربية النحل" وضرب كفا بكف، ثم أشعل سيجارة
استنشقا بحنق ولكنه لم ينفث أي دخان، أحسستُ به يُغرغر
برئتيه ولكن لم يبدو عليه أي تأثر ثم أضاف "كيف أمكنهم أن
يحرقوا كل تلك الصناديق، ما نوع التهديد الذي قد يُشكله النحل
عليهم إنه يعطينا العسل وهل يوجد ما هو أصفى من العسل؟
وماذا أعطونا هم ذبّحونا وأذاقونا جرع الدم الأكثر ملوحة
وحرارة... أليس في القرآن صورة كاملة عن النحل بل والكريم أنزلها
وسماها النحل... أي نوع من البشر هم هؤلاء... أي نوع"، لم أعرف
كيف أتصرف، فقط أودعت مبلغا سيكفهم ويكفي يمة ديهيا
لعشر سنوات القادمة ولكن لم يبدو على ملامحه أي استجابة أو
امتنان فقط واصل تدخين السجائر بشراهة على العكس من

زوجته التي احتضنتني وبكت، كان عمي خاسرا من نوع آخر ولكنه يبدو كمن خسر جميع أبنائه في حرب غير مُتكافئة الفرص.

لا أستطيع أن أقولها بوضوح "هذا ليس عادلا" لأنني ببساطة لم أبلغ تلك الدرجة من الشجاعة لأعترض على أمر هو مُراد الله... كلهم يقولون أنه مُراد الله ولكنني لم أفكر يوما بأن الله سيفعل هذا بنا يوماً لمجرد أننا أثرتنا غضبه أليس اسمه الرحيم الكريم الحليم، إذن فهمكم للذات الإلهية بالنسبة لي هو خاطئ الله لم يُرد يوما هذا بل أنتم من تحصدون ما زرعتم وهذا قانون كوني ينطبق حتى على النملة والصرصور هذا ما علمتموني إياه في الصف الأول، ألم تتذكروا القصة ولطالما نفختم رؤوسنا الصغيرة بالمغزى من الحكاية، المغزى من هذا كله أن الله لم يُرد بنا أي سوء بل كان كله من تدبيركم ومن صنع أيديكم والله برئ مما تصفون .

أخبرتهم بنيتي في سفر، تركت مفتاح البيت لعمي ودعوته ليسكن بيتنا ولكنه لا يستطيع الاستغناء عن حياة الريف وعن نسيم الجبل رغم أن الكثيرين قد نزحوا إلا أنه عنيد كأمه ولا يُمكن لأحد أن يُقنعه بالرحيل، سيبقى حتى لو كلفه الأمر حياته عانقت يمة "ديهيا" حتى كدت أهرس عظامها النحيلة، لم تلمح الدمع بعيني الشحيحتين ولكنها لمستته في قلبي ولم يكن منها إلا أن دعت لي بالسلامة ثم رددت "اللي يخرج من دارو تقل قدارو... اللي يخرج من دارو تقل قدارو"

الفصل السادس

المسامح يخسر...

"التاريخ يُعيد نفسه مرتين، في المرة الأولى كمأساة وفي الثانية
كمهزلة"
كارل ماركس.

الآن، وفي هذه اللحظة الخاصة من حياتي، أردت أن أحصي كل السنابل المحترقة من حقل العمر، لكي أرثيها لآخر مرة وأمضي، إنها الدهشة التي رافقتني ورجلي تلامس أرضية المطار الدولي للدار البيضاء، كم أشعر بالمرارة والغربة، أُسرع الخطى أكتم نشيحي يتحول وجهي للون الأحمر وكذلك عيوني، أحاول أن أبقى لا مرثيا قدر الإمكان ولكنه مطار، كيف للمرء أن يكون لا مرثيا مع هذا الكم الهائل من البشر الغرباء الذين يتفحصون وجهه مندهشين بنفس قدر كولومبس وهو يرى العالم الجديد-القديم، بعد كم الإجراءات الهائلة وتنقلي من شباك لشبراك بصفتي لاجئا يحتاج هذا لكثير من التدقيق والمُراعاة، كلما وقعت عين أحدهم على ورقة اللجوء تلك، حملق بي مُتفحفا ومتوجسا، ثم انكبَّ يقلب أوراقك كمن ينتظر أن يسقط منها مُسدس أو خنجر أو طفل مذبوح، بعد أن يخيب ظنّه يُسلمني أوراقك ولا ينبس بكلمة مع أنه رحب بالسائحة التي سبقتني وسيفعل كذلك مع الذي يليني، إنه تماما كالموظف الذي قابلته في الجزائر وكأنهم نُسخة واحدة سألني بنفس اللهجة، سبب قدومك من فضلك؟ أجبْتُ: أنا لاجئ هل تُريد أن تعرف السبب؟ حسنا، لأنني أفقت ذات صباح وحياني أخي، إلى هنا الأمر عادي ولكنه حياني بنصف جسد، الرأس حييتني بينما لم يفعل باقي الجسد ببساطة لأنني لا أعرف أين يكون!! هاجرت لأن جسد أخي انفصل لشقين، شقُّ يُحييني وشقُّ يجهلني كما أجهله، لهذا هاجرت فهل بإمكانك أن تكتب هذا على استمارتك الملعونة تلك، لا يمكنك طبعا ولكنك تسألني أسئلة غير ممكنة ومع ذلك أجيبك، ليس لأنني لطيف بل لأنني مضطر فقط

تأكدت أن وضعي مُختلف تماما وهذا ما بدأت أتعوده من أول موظف فتشني وكأني سأحمل الموت بجيوبي وأنثره أينما حللت إلى نادل المقهى الذي أصر أن يتجاهلني رغم أنني سأدفع تماما مثل الباقين وربما كنت لأزيد على ذلك بقشيشًا، على كل حال توجهت إليه مباشرة أخبرته أن كل ما أريده هو بعض القهوة وقنينة ماء وعاودت الجلوس وكُلِّي رغبة في العودة من حيث أتيت، لأبّد أن هذا كان أغبى قرار اتخذته في حياتي ولكن ماذا يُفيد الندم الآن يمة "دهيا" مُحقة تماما "اللي يخرج من دارو تقل قدارو" هذا ما قالت لي وأنا أتركها ببیت عمي غاضبة وغير مراعية لكل ما يحدث كانت تراها مُبالغة منا أن نترك بيتنا ونهرب من مُجرد حرب...

على مضض يحضر النادل قهوتي كما أشرها على مضض كذلك، أسوأ ما يُمكن أن تطلبه هنا هو القهوة، ولكن ليس هذا بالأمر الجلل، ربما نسيت أختي أمر قدومي، أنتظر هنا منذ ساعة تقريبا، صورة ضخمة للملك الحسن الثاني، يُحس الناظر إليها أنه المراقب الفعلي للمكان حيثُما وجّهت نظرك رأيتهُ مُنتصبا ولو ركزت قليلا بعد لأحسست أنه ينظر إليك مباشرة، ربّما لو كنت سائحا عاديا لما انتهت لهذا كله، ولكنني لاجئ وهنا يكمن كل الفرق...

قالت أمل "اكتب عن هذا كله، ليس كأستاذ تاريخ وإنما كأبي ضحية"، أتذكر جيدا أنني أجبتها: "لست ضحية، أستطيع أن أكون كذلك ولكنني لا أريد، أكون ضحية لو أنني هربتُ أو نزحت لمناطق أكثر أمنا كما يُشاع أو أنني طلبتُ لجوءاً سياسيا مثلا ولكنني أفضل أن أشاهد كل مهازل هذه الحرب قبل أن أتحوّل إلى

ضحية وأبحث كما الآخرين عن مكان أكثر قابلية للعيش، أنا لست كاتباً، أنا مجرد شاهد على هذا العطب في إنسانيتنا وبإمكانني أن أحكي للآخرين عنه متى ما سُفيت منه حقاً وأصبحت في حكم الضحية"، الآن، بالتوقيت المحلي لأهل المغرب، لا أملك إلا أن أقول أنا ضحية بملء الفم والقلب والعقل وخواء الديار... كما أنني بدأت أحن لأمل أو ربما بعبارة أصح للحياة.

تلوح أختي و"الجميع" من بعيد، تُسلمه الولد وتهرول ناحيتي تعانقني وتبكي، أحاول أن أفعل مثلها فأتذكر أنني غريب.

بمجرد أن ركبنا السيارة بدأت بالتثاؤب كإشارة للتعب أسندت رأسي المثلث بالذكريات، أغمضت عيني وسرحت بعيداً كان صوت ليلى مزعجاً ولكنني استطعت تجاوزه بقليل من الجهد وكلما فتحتهما أسترق النظر للطاهر الصغير بجانب يرمقني بنظرات استغراب دون أن يبتسم كما لم أفعل أنا، ربما لهذا كان وجلاً مني هل تراه رأى فيا مستقبلاً قريباً، لا أظن أن طفلاً في عمره يملك بعد النظر هذا، كانت المسافة طويلة أو هكذا أحسست لكن بمجرد أن سمعت ليلى تقول "هذه طنجة يا يوسف" في محاولة منها لإخراجي من دوامة الأسئلة التي كانت تستشيط بعقلي وتلتهم منطقهم بلا هوادة، عندما أبصرتُ ما أبصرتُ أحسستُ أن كل مزاج الرحلة قد تغير، ليس من السهل لفت انتباه رجل بائس مثلي ترك خلفه ذلك الكم المهول من الدمار والأسى كان يكفي أن يلمح أي منظر طبيعي للحياة دونما أهوال ليكون ممتناً وكان هذا في حده يُعد ترفاً، هذا الجمال الفتان فعل فعلته وها هي العيون تضح بالصور والبهجة وكأنه لتوه أخذ مخدراً وتغاضى عن كل

انكساراته التي جرها معه طول الطريق كطفل يتسلم لعبة جديدة.

أبي، أتعرف أنني كنت دائما أتساءل لماذا لم تيبس التينة رغم أنني لم أعتني بها ولم أسقيها إلا نادرا، لماذا يا ترى، كنت أحس أن ماء وضوئك هو السبب، منحت اكسير الحياة لهذه الشجرة ولم تستطع أن تفعل ذات الأمر مع أبنائك يا السي "الطاهر"، أحيانا كنت أتمنى لو أنصهر كقطرة ندى على أوراقها فأعكس النور والخضرة و الغيمة المارة بتأن وكذلك وجعك.

- يا بني اقترب مني... كم أنت مسكين يا يوسف.
- نزل دمعنا حارا، دفنت رأسي بصدري وبكيتُ حتى تورمت عيوني وتعبت، ها هو الزمن يُثبت سطوته على الإنسان، أصبح السي الطاهر كمشة من عظام تنخرها الأمراض والهموم شممت جلده بنهم وتلذذ كان فيه من رائحة بيتنا، عبق الماضي الجميل فكلما خفتُ أو مرضت حملني بذراعيه وخلصني من كل وجع، حتى وهو عاجز عن الوقوف بمفرده فقد أنقذني حضنه من هذا الألم المر الذي حملته معي منذ آخر مرة تركته في المطار .

ليلا، بعدما نام الكل، ذهبت لأبي، يده اليمنى تمسك بمسبحة فاكتفيتُ بيده اليسرى، قبلتها برفق وشوق، تكومتُ بجانبه سألني دون أن يلتفت لي، تماما كما أدار ظهره لي آخر مرة لايزال مُحافظا على موقفه رغم الهم المر وعجزنا المُتفاقم لايزال غاضبا من جبني وقلة حيلتي، يعتب علي أن تركته يذهب، أعتب عليه أن تركني وذهب.

- "كيف كان العزاء؟"

- "كان مُناسبا".

- كيف يعني؟

- حضره كل من يجب أن لا يحضره، هذا ما أعنيه ب "مُناسبا"
- لاحول ولا قوة إلا بالله، الله يرحمكم يا أبنائي وغط في حُزنه كان
ينشج، لم أر دمعه... سمعتُ نحيبه، لمستُ حُرقتَه ولكنني لم أبكي
فقط التصقت بظهره المُحدب ولأول مرة منذ زمن نمت لساعات
متواصلة كأنني كلب أهل الكهف.

صباحهم ليس ثقيلا ولا خانقا، نقي... حلو وأبيض وهذا البحر
كريم يحمل بعيدا كل البؤس والخيبات يطوي الأمس المُحمل
بالتعب والأعباء لياتهم بيوم جديد مُشرق وبهي، لا يلفظ جثثهم
لا يدير موجه لآلامهم ولا تختلط زرقته بكدر هذه المدينة تشبه
الأمهات تضحك بكل عطف وحنو مهما أذنبت على عكس المدن في
بلدي تضحك حتى تكاد تخنقك كحبيبة غاضبة لم تعد المغفرة
وفي هكذا صباح لم أستطع مقاومة رغيتي في المشي، قررتُ اليوم
أن أسلك طريقي دون أن ألتفت، أن أنتشي بحريتي المؤقتة دونما
قلق ورغم شوقي الكبير لرائحة القهوة المنبعثة من منازلٍ خلفتها
ورائي إلا أنني عزمْتُ أن أبقى على روعي الإيجابية أبحثُ عن مقهى
يُطل على البحر وعلى قلبي علّه يواسيني، لم أهتم بما قد يُقدمه
من مشروبات بقدر اهتمامي بتاريخ المكان، أردت أن أجلس في
مكان أقدم مني لأستطيع مُحجاجة نفسي بأسرار البقاء، أن أكون
هنا والآن في هذه اللحظة ليس اختيارا إنه قدر، أن تكون جثة أخي
في مراحلها الأخيرة من التحلل في مكان قصي ليس قدرا إنه اختيار
أن يُدفن رأسه في شبه قبر وأتلقى التعازي كمن دفن إنسانا كاملا

فهو ابتلاء، حتى هذه اللحظة لا أرى إلا ماضيي، تذكرت ليلة البارحة، تذكرت نفسي واقفا مادًا يدي لجموع المعزين، تذكرت ذلك اليوم بكثير من الغضب، إنَّها مرارة لا يُمكن للرجل الوحيد أن يصفها بكثير من الأهمية، منذ وقت طويل استسلمتُ لكل هذه الضحالة وكل أولئك الناس الثرثارين الذين لا يرون أبعد من أنوفهم هم الأقدر إذ لا يتركون لك مساحة لتعيش غربتك ببساطة وصفاء، إن أرادوا أن يمنعوا عنك الحزن دفعوك ببلاهتهم للانتحار، مواساة هؤلاء خصوصا تزيد من الحمل على كتفي وكلما قال أحدهم "البركة فيك يا يوسف" توصلته بعيني أن يصمت فقط لئلا أقتله لأنني جبان جدا إذا ما تعلق الأمر بقتل نفسي العزاء، ماذا يعني أن يشدَّ أحد على يديك ويعدد خصال الفقيد أو المفقود أو الشهيد أو القاتل... كلها ألقاب والأصح منها هو "ميت" وهو لا يعرف إلا اسمه، تتمنى لو فقط يدعونك وشأنك، مساحة من الصفاء والود مع "الميت" تبكيه لساعة أو ليوم أو لسنة ولكنك حتما ستكون مُرتاحا مع هذا أكثر وأنت وحيد، حسنا، الآن يجب أن أطوي كل هذا، أنا أسلك هذه الأزقة بكل أريحية فلا أحد يعرفني، أنساب مُنتشيا بغربتي وبإثارة الاكتشاف، فكل عادي جميل هنا، صرت أميل للمجانين والمُختلين والمتخيلين عن ذكرياتهم ولكل الغرباء الوحيدين مثلي إنما أولئك الذين يتذكرون أدق التفاصيل فكلمهم أعدائي وأعداء للوطن أيضا... أنا قد أكون إنسانا مُفعما بالذكريات مُختنقا بها ولكنني لا أرددها على مسامع أحد أبقمها مُتأججة بداخلي لئلا تحيا مُجددا ولو مُتذبذبة على موجة صوت!!

بعد مشي طويل وجدت مقهى أخيراً، قرأت الاسم في محاولة مني لحفظ الأمكنة، اتخذت مكاناً مقابلاً للشارع، طلبتُ شيئاً بنعناع وانتظرت... الرجل الجالس في الجهة المقابلة يشير وقد اختلط كلامه بالقهقهات حتى دمعت عيناه، "إنه المهبول الجزائري" بينما يمر ذلك المجنون وهو يؤدي حركات قتالية بالغة الأحكام، وكأنه في مبارزة حقيقية، يُنبهه صديقه "انظر لحركاته، كأنه بروس لي"، بينما يستمر المجنون في عراك بلا خصم وبلا رايح أو مهزوم، تنكمش معدتي، ترتعش كل فرائسي أبحث بعيني عن أي إشارة قد تدلني للمرحاض، أحاول أن أسأل النادل، يشير لي قبل أن أنهي كلامي "هناك"، ألهث مُسرعا أجنو على ركبتي أفرغ أحشائي كلها دفعة واحدة وكأنني تقيأت وطناً بأكمله، بكل قرفه وغصاته وخساراته وخرابه... أحس براحة كبيرة، أسند رأسي إلى الجدار القذر المُغطى بالبول كلية ولكنه كان محتملاً جداً مُقارنة بما كنت أحمله بجوفي طوال هذه المدة. أستجمع قواي وأنهض بحثاً عنه، أركض بما تبقى لي من دهشة أتتبع ظله الهارب كمن يلاحق فرصته الأولى بكلّ الاصرار والعزم اللازمين، ولكنني رغم جُهدي أفضل كعادتي، أشد على ركبتي أتصعب عرقاً، ألهث ولا أهتم لكل تلك المشاعر المُتكالِبة بداخلي بقدر اهتمامي بذلك الذي يحمل نفس وجعي، ب"المهبول الجزائري"، لستُ واثقاً إن كنت سأقابله ثانية ولكن ما شعرتُ به لحظتها يُشبه الخزي عندما تتعرى وسط حشد من الناس كلهم يبصرون عيوبك... عورتك...

وجراحك الطيبة منها والمفتوءة فلا تملك إلا أن تنكمش كجنين

وتتمنى لو تُعيدك الأرض سيرتك الأولى، إلى طين... هذا عاري
كلاجئ... هذا عاري أنا الغريب.

واصلتُ المشي، لم أعد أشعر بقدمي، توغلتُ في المدينة
القديمة، رأيت أول مفوضية أمريكية أو قُنصلية، لا أدري بصقت
عندما قرأت ذلك وواصلت المشي، هذا المكان يُشبه القصبَة الفرق
الوحيد أنه هادئ، ثم اكتشفت أنه كذلك يُسمى "القصبَة"، أجد
مقهي آخر على شكل قصر، لا يغريني أبدا بالدخول لأنه يبدو
فخما أكثر من اللازم ورغم أنه بالغ القدم فقد تحول من قصر
فخم إلى مقهى، إلا أنني أخاف الأماكن المُغلقة، فلقد ترعرعت بدار
بها بهو وتينَةٌ ونافورة ماء... أنا كائن غير قابل للتجدد لهذا درستُ
التاريخ وأرى من البلاهة أن يتحول قصر لمقهي، هذا رأيي
الشخصي الذي لن يهم أحدا على الأرجح.

الطريق يزداد صعودا، أحس بالوهن، أبحث عن أي مخرج
يلفطني لطريق رئيسي، أمشي لأكثر من نصف ساعة كأنني تائه في
تجاويف مُخي، ثم بعد مشقة أبلغه، أستقل سيارة تاكسي وأعود
أدراجي مُستسلما خائبا لضالة ما حققته اليوم رغم توقعاتي
الكبيرة.

أجلس للمائدة، أسند رأسي على يدي مُتعبا وغير راغب بالأكل
لم أكن بحاجة لمُسكن، ولكن إصرار ليلى جعلني أبتلعه حتى
تخلصني من زنها وشكواها من إهمالي لنفسِي، كانت أسئلتها
المباشرة تُسبب لي الدوار بينما لم أكن واثقا من موقع قدمي كانت
تُلح أن أتقدم لوظيفة بإحدى الجامعات، كنتُ أريد أن أستمتع
بهذه المدينة، أن أستمتع ببؤسي ومآسي دون أن يُقاطعي أي

انفجار أو دفن جماعي لهذا صمتُ عنها وكأَنَّها لم تتحدث أبداً،
أومئ لها أبي أن تصمت، تظاهرت أنني لم أنتبه استأذنتهم وتوجهت
لغرفتي ثقيلًا كما يليق بغريب.

فتحت نافذة الغرفة، النجوم هنا أكثر... السماء هنا أصفى
والهواء لا يُثقل رئة الغريب ولكنه لا يُثَلِّج صدره كذلك، مهما كان
هذا الجمال أسرا ولكنني يجب أن أعمى عنه لأحترم كل الذين
ماتوا دون أن يلوحوا لي مودعين، ولأحترم كل القادرين على التلويح
في المطارات وفي الموانئ وعلى السيرير المقابل من مشفى... لأحترم
تلك الأرض لأنها ربتي ولأعتب عليها لأنها لم تبتلعي كما فعلت مع
كل أبنائها البارين... حتى الظلال كانت أكثر متي حظًا، إذ ابتلعها
الدخان شذرات.. شذرات حتى تلاشت حسنا، ولكنني هنا والآن،
كل شيء جميل وهادئ ومع ذلك لا شيء يُعجبني، لو سمعت أمل
هذا للمتع عيناها وهي تظن أنني أقتبس من قصيدة، بينما
أقتبس من معاناة فهي ترى جمال الأدب وأرى مرارة التجربة!!

أطلب شايًا، أختار مقعدا قصيا أترك العالم كله خلف ظهري
وأنصت لهمهمات البحر ترتطم بطبلة أذني، يتردد صداها داخل
رأسي مُحدثا ما يشبه الدوار والنشوة، أستمتع بكوني لا مرئي
أتلذذ بعزليتي، أنا الغريب، لا أعرف أحدا ولا أحد يعرفني حتى
البحر الذي خانني في مواطن سابقة يعتقدني شخصا آخر فيؤرني
الذباب لا يُزعجني ولا أحد يسألني عن حالي، كائن بلا أهمية
يشرب شايًا على غير عادته ويحفل بكل هذا الأسى دون أي
مواساة أو مُقاسمة، بذاكرة قوية وحياة مؤجلة ينتظر أن يكتب
قصته كضحية، كأنه الكاتب الوحيد في هذا العالم الذي يملك

شرف التحدث عن مأساته دون أي خوف من أحكام النقاد أو ردود فعل القراء، خوفه الوحيد هو من ضحايا أنفسهم، لأنه واحد منهم، يأخذ على عاتقه هذا الفعل النبيل ليس لأنه الأذكي أو الأكثر ثقافة، ولكن لأنه مدين لهم كلهم بهذه الفكرة عن الكتابة أولاً وثانياً لأنه يملك الكثير من الوقت الذي ينقصهم ليفكروا في أمر مماثل، أول الضحايا كانت أمل وآخرهم أنا، لهذا من بين الكتاب المشغولين عنا بالحديث عن حبيباتهم الجميلات الخائئات، يجب أن أنقل هذا الوجدع بعيداً عن التاريخ وعن الجغرافيا وعن الدين أو السياسة، هذا الوجدع إنساني محض لا يمكن لأي إطار أن يستوعبه أو يحتويه إلا إذا استثنينا القلب المفجوع، إنها معركتي لوحدي، وكل ما يجب أن أفعله هو أن لا أنهزم، وأن لا أغض الطرف عن أي مجرى لمخ الدمع.

أكتب لكل للذين يحملون ويستحملون أهمهم قصراً لا اختياراً... للذين لا يحملون ولا يجرؤون على العيش كالبقية... للذين لا يرسمون الغد خوفاً من الخيبة واستكانة لأوامر جلال ما.. للذين يموتون عبثاً... للذين لا يأبه لعذابهم أحد... للذين يغادرون في صمت... يأتون ويرحلون دون أن يدرك أحد أهمهم... للذين يعيشون لقضية ويموتون لكلمة حق... للذين لا يهمهم شيء غير مصالحهم... وللذين يدفعون الغالي والنفيس من أجل كرسي... لهؤلاء كلهم... للجزائريين أينما وجدوا.. تريتوا وفكروا قليلاً... كل منا بطريقة أو بأخرى يحترق في هذا الوطن.

يقاطعني ذلك الصوت الجوهري فينتشلي من هالتي الزرقاء تلك ويجبرني على الإمعان في الإنصات، ولكنني لا أغضب ولا

أضرب كفا بكف، فقط أصغي وأسمح لهذا الكم الهائل من
الجمال أن يخترقني دون أدنى مُقاومة، صوت كمان مُرافق لكلمات
لم تكن غريبة عني، كانت تلك الكلمات "أنا":

- "أيها الحطاب

اقطع ظلي خَلّصني من العذاب

من رؤية نفسي دون ثمر...

لماذا وُلدت بين المرايا؟

اليوم يدور من حولي والليل يصنع نسخا مني في كل النجمات...
أريد العيش دون رؤية نفسي وسوف أحلم بأن النمل وأن
الشوك صار أغصاني وطيوري

أيها الحطاب

اقطع ظلي خَلّصني من العذاب..."

أقف وأصفق بحرارة وبغرابة، ينظر الكل إلي غير مستوعبين
لهذا الكم من الاحتفاء بعرض روتيني قد يتكرر في هذا المكان
عشرات المرات دونما أن يُحدث ذلك الانبهار، أنا الذي جاهدت
لأبقى مُتواريا عن الأنظار قدر الإمكان، ها قد نالت مني هذه
القصيدة إذ عرتني أمام الجميع وخاصة أمام نفسي، ما كانوا
يجهلونه أنني وأخيرا وجدت إنسانا في هذا العالم منحني القدرة
على الحياة بطريقة أكثر شاعرية فكان أن منحني لوركا هذه
الكلمات دون أي يعرف بأنني سأكون موجودا في زمن ما وبكل
الهشاشة التي وصفني بها في تكهنه الغريب ذاك تنزل إلي تلك
الشابة بوجهها المُشرق وابتساماتها الندية، كانت النوع من

الأشخاص الذي أمقته، مُفعمة بالشباب والحياة وكأنها أمل تمد
يدها نحوي:

- مرحبا، أنا كزرة، يبدو أن العرض أعجبك، بدوت مُتحمسا.
- القصيدة جميلة.
- هل تُمانع، لو جلست قليلا؟
- لا أبدا، تفضلي أصلا كنت على وشك الانصراف.
- لملت أوراقي بيدين مُتعرقتين، حلقي جاف تماما، أهرب منها
كمن يهرب من ورطة، بينما لا تزال غير مُستوعبة لتصرفي:
- هل أزعجتك؟
- لا، لدي موعد، أحدهم ينتظرني وقد تأخرت.
- ماذا تفعل تحديداً؟
- أكتب.
- هل أنت كاتب؟
- لا، أنا لاجئ.
- آه، حسنا سمعتُ مرة أن المرء لا يجب أن يكتب وجعه، يجب أن
يَبكيه وحسب فإذا كتبه منحه رُخصة تنقل لكل من يقرأه فيحبي
الوجع في كلِّ من الكاتب والقارئ على السواء دون أن يخمد يوما.
- من قال أنني موجوع؟
- اللاجئ دائما كذلك.
- لا أعرف كيف أبكي...
- يا لها من محنة!!
- أنصرف مسرعا خوفا من تلصص جديد للحياة أنا في منأى عنه.

"الجبان يموت ألف مرة، والشجاع مرة، الرجل الذي قالها أول مرة كان على الأرجح جباناً عرف الكثير عن الجبناء ولا شيء عن الشجعان، فالشجاع إذا كان ذكياً يموت ألف موت ولكنه ببساطة لا يذكرهم، أعلم أن الليل ليس كما النهار أن كل الأشياء مختلفة، أن أمور الليل لا يمكن شرحها في النهار لأنها خلاله تكون قد انجلت، أعلم أن الليل يكون مروعا للوحيد متى ما بدأت وحدتهم، إذا حمل الناس شجاعة كبيرة إلى الدنيا على الدنيا أن تكسرهم والسبيل الوحيد لذلك هو قتلهم... فتقتلهم بالطبع، الدنيا تكسر كل أحد، ثم بعدها يصير العديد قوين في ذات الأماكن المكسورة ولكن أولئك الذين لن ينكسروا تقتلهم... الدنيا تقتل اللطيفين جداً... الطيبين جداً والشجعان جداً بلا تمييز، تقتلهم بإنصاف إذا كنت لا أحد من هؤلاء فتيقن أنها ستقتلك أيضاً ولكن لن يكون هناك داع لها للاستعجال... لم أعد شجاعاً يا عزيزتي أنا مكسور بالكامل لقد كسروني... هذا العالم نشيده فينهار ثم نشيده ثانية فنهار نحن..."

يقرب وقع الخطى مني أكثر، تتسابق لأنفي رائحة برتقال وياسمين وبحر... ثم يأتيني الصوت حياً، مبهجاً ودافئاً: "سيدي الكاتب أعجبك مقطع؟"

- أجل، جميل.

- أرنست هيمنجواي، عرفته أكيد.

- لا، لم أكن أعرف.

- ماذا تكتب، هل أنت حكواتي؟!

- لماذا؟

- لمحتُ كلمة "حكواتي".
- الجد العاشر لجدتي كان كذلك.
- تُطلق ضحكة مُدوية: "وكيف لك أن تكون مُتأكدا أنه كذلك؟"
- يمة ديهيا لا تكذب.
- اسم أمك ديهيا.
- لا بل اسم جدتي، هي التي روت كل هذه الحكايات نقلا عن جدّها.
- أمم... حسنا يبدو الأمر مُثيرا للاهتمام... ثم بسرعة خاطفة تسرق الأوراق من يدي وتنطلق راكضة بخفة طير: "غدا موعدنا سيدي الحكواتي".
- أتلملم في كرسي، أُمعن التحديق في زُرقة البحر وأنا أحاول كتم خفقة القلب... وأنا أحاول إيقاف هذا الهدير المُدوي في قشرة الرأس... أنا لستُ مؤهلا لأقبل هذا الجمال كله دُفعة واحدة، يا ربي أغثني.
- إذن، كان خطابا، لهذا أثارته تلك القصيدة.
- نعم، بطريقة ما.
- تشرب الشاي دائما؟
- عفوا ولكنكم سيئون بإعداد القهوة.
- أنت مُحق نوعا ما، ما اسمك أم تُفضل أن أناديك "الحكواتي".
- يوسف.
- حسنا، مجددا أنا كثرة، تشرفتُ بك.
- هلا أرجعتي أوراقِي.
- طبعاً، تفضل.

- أو أبقمها عندك، عندما أعود لبلدي احكمها هنا على حافة
المتوسط، سيصلي صداها وأنا هناك، افعلي ذلك من أجل كل
حكواتي .

- سأفعل حتما إن كان للعمر بقية، "لكن ما معنى" أكلتني شجرة".
- الحطاب مات بطريقة غريبة لم يعرف أحد كيف وكان تفسيرهم
أنه افترى على وحش الغابة وعلى إرث الأسلاف ولهذا من المرجح
أن يتحمل ذنب موته كل من أساء لهم بالغابة بما في ذلك
"الشجرة".

- لم أفهم، ولكن لا علينا، ما كان عملك هناك .
- كنت أعد الموتى، هذا كان عملي.
- كنت مسؤولاً عن شهادات وفاة، أليس كذلك!
- شيء من هذا القبيل.

- هل يُعجبك هذا المكان ؟

- تُعجبني فكرة أن تكون أنت النهاية لا أحد بعدك.

- تقصد على الحافة، وتبتسم، بينما لا أجد من داع لذلك.

- أستاذك لدي موعد.

- لا يبدو وكأنك تعرف أحدا هنا.

- إذن أنت مُخطئة، السلام عليكم .

فرغ أبي من صلاته، نظر إليّ كمن يحضر كلاماً مناسباً تنحنح
قليلاً ثم سألتني:

- يوسف، هل ما زلت تُصلي؟

- نعم، أصلي.

- لم أرك تصلي منذ مجيئك إلى هنا.

- الحمد لله أنه يراني، أليس هذا كافيا، وكأنني فجأة تحولت إلى أخي "عبد الله"، طأطأ أبي رأسه كمن خاب أملة و لم ينبس ببنت شفة.

- أعرف يا أبي أنك لم تعد "السي الطاهر" الذي كُنْتَته، وكلنا تغيرنا بشكل مُحير حتى النظر للمرأة صار فعلا مُستفزا جدا نتجنبه ما استطعنا لهذا نبدو على هذا القدر من الفوضى، لو أنك نفس الشخص لما سألتني أصلا، إن كُنْتُ لا أُصلي فهذا لن يضرِك في شيء يا أبي ولكن سيضرني أن أكون كائنا بلا سند، أن لا أجد أي ملاذ أهرب إليه في عز هشاشتي، أن أرمي رجلي في الفراغ ولا تلتقطني أي يد فأسقط دون أن أصل لأي هاوية كذلك، هل تظن أنني كنت لأبقى عاقلا دون أي نور وسط كل هذه العتمة، ليس أمرا سهلا أبدا، هل كُنْتُ لأنجو من كل أشباحكم وهي تقاسمني سريري كل ليلة دون أن تُحدثني ودون أن تراني وهذا الأكثر إبلاما، حتى أشباحكم تجاهلتي كأنني رجل أستحق كل ما جرى لي، أراكم تتقاسمون الطعام والأحاديث تتبادلون أعضاءكم، يجلس عبد الله ويضع رأسه على ركبته وكلما غضب رمى رأسه بعيدا، يتدحرج حتى يتوقف تحت قدمي ثم ينظر لي ويبتسم، تأتي رحمة راکضة وتحمله بين يديها تتفحصه ثم ترتديه فتتحول إلى عبد الله ولكن ما إن تستدير حتى أكتشف أنه قد نبت لها جناحان فتطير بعيدا عني، تقترب أمي مني، أحاول أن أضمها فتصفعني وتمضي، هل تعتقد يا أبي أن هذا ليس حقيقيا، إنه حقيقي جدا ولولا أنني ركضت لأبوابه المُشرعة لأصابتني لوثة عقل الله يا أبي لا يستحق أن يُدافع عنه هؤلاء ولا أي كان، الله يا أبي مصدر كل حياة فكيف

يُدافعون عنه بالموت ماذا سيبقى عندما نموت جميعا، سيرقص الأطفال الصغار على جُثتنا دون أن يعرفوا أي ملة كنا نتبع أو أي قبيلة كانت تحوينا ولن يُعاقبهم الله لأن قلوبهم صافية ولن يفرغ أحد مُسدسه في رؤوسهم لأن الرقص حرام أحسن أننا معلقون جميعنا بحبل واحد وكلما حاول أي منا أن يتنفس بصوت مسموع شدَّ الحبل أكثر حتى تتحول عيوننا للون الأحمر وتبرز عروق كثيرة ولكنها لا تنفجر ولا نحن كذلك...

بعيون مُتعبة نراقب ونرى، ونظرف مرات عديدة في محاولة منا لننسى ما رأيناه ونُبقي على هدوئنا الطبيعي الذي تعلمناه بالصبر والرضا والذل أغلب الأحيان، لا تتعدى ردود أفعالنا أن تكون كلمات كهذه التي أكتب الآن وفي آخر الليل نحمد الله على نعمه الكثيرة ومن بين ما نتحاشى الدعاء به خوفا من أن يكون للجلاد أذان صغيرة تسمع أحاديثنا الأكثر حميمية أن نقول "اللهم اقطع الحبل وخلصنا"، الغريب في هذا الحبل أنه لا يبلى ولا يتغير ولا يتأثر بالعوامل الطبيعية والبشرية كذلك، أو ربما نحن فقط من نراه كذلك، نحن الخانعون الذين اعتدنا وجوده حول رقابنا فتعايشنا معه وألفناه... أتخيلنا في مشهد ساخر حيث يضع سحرة فرعون حبالهم حول رقاب الأجداد لكن هذه المرة ما من موسى وما من هارون وحتى السحرة لا يعرفون التهليل والسجود إلا لفرعونهم الجديد ونحن الهاربون من حبالهم إلى البحر، لن ينشق البحر ليُنقذنا ويحملنا للضفة الأخرى فقط سينشق ليبتلعنا جيلا بعد جيل حتى نفنى.

أرانا دمي محشوة بالقش والتبن وأخاف مما أخاف أن تشتعل
نارنا فكيف لفرعون وسحرته أن يطفئوا نار قشنا .

- تكتب مُجددا؟

- كما ترين، أحاول.

- لم تطلب شيئا؟

- أنا صائم.

- ما المناسبة؟

- ليس لأمر معين، فقط صائم.

- آه، للأسف أردت أن تُشاركني عيد ميلادي، سيأتي أصدقائي بعد
قليل.

- أنا مُتأسف.

تنصرف كززة دون أن تمنحني الكثير من الوقت للاعتذار
ولكنني لا أستطيع أن أشاركها فرحتها وهي لا تعلم عن حزني شيئا،
من حيث أتيت لا نحتفل بأحداث مُشابهة فهو أمر غريب علينا
تماما ولكن يبدو أن الجيران يحفلون بيوم قُدوهم لهذا العالم
وهذا شأن يخصهم، كززة إنسانة لا تصلح إلا أن تكون فنانة أبيض
وجهها، سوداء ذاكرتي، مُزهر عُمرها، منتهية صلاحيتي... التيه في
العشرين مُغامرة، التيه في الأربعين ندم، هذا الحديث الطارئ عن
الوقت يجعلني أستذكر أنه اليوم يمر عام كامل على مقتل أخي
ولكن لزوجة تلك القطرة الحمراء لاتزال تحفر ناصيتي مُحدثة كل
هذه الثقوب بروحي دون أن تسمح لأي ضوء بأن يخترقني... هي
تسمح فقط للدموع الغزيرة بالانهيار أنتهي على هذه الحال...
جاف المُقل، مبتل الجسد، بالغ الهشاشة، شديد الحيرة، لستُ

جديرا بشيء ولا أريد أن أعود اليوم للبيت، سيبدو كأنه اليوم الأول للفاجعة، الوجوم على وجه أبي، نحيب ليلى ومواساة "الجميع" التي لا تُسمن ولا تغني من ألم سيتصل عمي وسيبكون كثيرا وسيبدو "الجميع" بمنظر الشهم الذي يواسي هؤلاء المذبوحين فيمسح الدم عن أرضيته الفاخرة لا عن أجسادهم وسيواصلون ذلك حتى يتوقف أبي وينصرف لغرفته، لن أشاركهم هذا الحزن الشاق فأنا لستُ شخصا ودودا يقبل أن يرى الآخرون بؤسه... أنا في منأى غن هذا كلّه، لذا سأمشي حتى تخور قواي علّني أرمم كل هذا العطب.

أجوب هذه الشوارع بلا هدف، ورغم برودة الجو إلا أنني أتعرق بشدة، مُرتفعة حرارة جسمي، مُنخفض الهمة والرأس أُتيح لكل الناس الارتطام بي حتي يخلصوني من دموعي وعريقي فأنا رجل مسكين لا حول لي ولا قوة لأستحم عندما أعود ولكن حتما سأصلي، قلبي مفطور وكلما طرفت أرى جثة أخي تنهشها الذئاب لا الديدان، توصلني قدماي للكورنيش، أمشي على طوله وأنا أحاول إفراغ هذا العقل، وأنا أحاول ترميم كل هذه الخدوش التي خلفتها مخالهم على قشرة مُخي، يا الله، لماذا عرضتني لكل هذا العذاب رغم علمك التام بأنني كائن هش رخوي وغير جاهز لأدنى تعب، ألسنت أنت من خلقتني، لماذا لم أكن أنا الذي أموت بدل عبد الله لقد كان أقوى وباستطاعته أن يحتمل الدم والرؤوس المقطوعة كانت صورة مألوفة لديه كان دائما مُعتدا بنفسه عندما يتعلق الأمر بهكذا أشياء، وكان يتباهى كل يوم وهو يروي تفاصيل الميتين بين يديه على العشاء وبينما كنت أترك المائدة مُشمئزا، كان

يطلب صحننا إضافيا، لم أكن يوما على استعداد لمواجهة كل هذا ولا أعتقد أنني سأكون كذلك يوما، أوصل المشي، أقطع الطريق مُخلفا البحر خلفي فهو لم يمنحني الكثير من الهدوء بل زاد من تراطم أوجاعي وهياجها، تبدأ الشوارع في الصعود بي، يقذفني زقاق لآخر حتى أعتقد أنني في متاهة فك الجميع لُغزها إلا أنا متاهة مُرائية تمنح جميع الوافدين خريطة وتُعطيني مصباح جيب، كأنها تعرف أنني مُعتم بشكل غير مسبوق، لكنها لو منحني خريطة لتدبرتُ أمري...أجده، إنه هنا يجلس عند هذا البيت الفخم، لا أصدق أنني أصادفه كمن تعثر بحجر نفيس بينما ينس من فقره، أجلس بجانبه، هذه المرة هو هادئ تماما يبدو كمن أنهى كل معاركه وجلس ليحصل على قسط من الراحة، سألته:

- أنت جزائري؟
- عندما يستدعي الأمر أكون كذلك.
- منذ متى وأنت هنا؟
- تقديريا، مُنذ البارحة.
- كيف... رأيتك منذ أكثر من عام !!
- لم أكن أنا.
- مُتأكد أنه أنت، كنت تؤدي حركات قتالية بالغة الإتقان أتذكرك.
- أنت جزائري كذلك؟
- نعم.
- يا حليلك.
- عفوا !!
- هذا منزل ممثلة، اقرأ لنا اسمها.

- مكتوب هنا "باربرا هاتن".

- وماذا أيضا؟

- "يوجد فوق هذه الأرض جنة، هذه الجنة هاهنا... هذه الجنة هاهنا."

- رأيت، إنها الجنة.

- إنه تعبير مجازي.

- لا بل هي جنة، سأبقى هنا حتى يفتح الملائكة الباب ليخلصوني من كل عذاباتي وأستحيل شابا يافعا بجسد قوي وعقل هادئ لا يغيب...

...

- كل ما قاله، رائحته الكريمة تلك رغم هندامه المرتب الذي لا يدع موطننا للشك أنه كان ضمن الجيش، حرارتي المرتفعة قدمي المتورمتان، أنا الهارب من الجحيم تستفزني هذه الجملة فأتقياً على باب ذلك البيت حتى أكاد ألفظ أحشائي وانصرف غير خائف الخوف كله موجود بمكان واحد بهذا العالم بوطني!!

عندما عُدت لم يتسن لي الوقت لكي أصلي، لأنني استحممتُ

طوال الليل ولم أتطهر تماما من كل قذارتي!!

جلستُ على السور أتأمل حذائي بدا رثا ومُستعملا أكثر من اللازم، يمشي بي منذ أن خرجت من بيتي آخر مرة، أترك له حرية اختيار الطريق لأن العقول لم تعد ذات قيمة، ولا أريد أن أشتري واحدا جديدا فأتحول إلى مُقيم، أو لربما لن أعتاد على طريقة مشيه فيأخذني لأماكن لست معتادا عليها، سأبقى وفيما طالما أن

"لا أحد غيري يعلم أن حذائي يؤلمني"¹، وهذا الجيد بالأمر، ذلك السور بدا ضخما بمُخيلتي، مُتضائلا في الواقع، لم يكن يُشبهه سور الصين في شيء ولهذا كانت صدمتي كبيرة عندما عرفت أنني أجلس عليه، يسمونه "سور المعاكيز"²، أسميه سور المُتعبين أحقد بالناس العابر منهم والجالس والبائع والمتسول والسائح ولا أجد أحدا يُشبهني، يمر الوقت سريعاً، فهمت السبب الذي جعل المهبول يظن أنه قدم البارحة فقط، وأن مدة مكوثه لا تتعدى ليلة واحدة، حددها بعثوره على فردوسه المفقود، ظن أنه أخيرا وجد باب الجنة وأنه سيُربط هناك إلا أن يُعطي الله أمره لملائكته الكرام فيفتحون الباب ويدعونه للدخول، الأبواب هي نفسها في كل مكان تخفي ما بعدها ولكنها رغم ذلك تحمل اسم ما تخفيه باب الجنة، باب جهنم، باب المدينة، باب المسجد، باب الملهى، باب البيت، لهذا فعندما لمستُ باب بيتنا للمرة الأخيرة شعرت بكل ذلك الأسى كنت أودع حياة بأكملها أغلق الباب كمن يغلق دفة كتاب أنهى قراءته للتو ولكنه تمنى أن لا ينتهي عند هذا الحد، كأن الباب هو الذي يتولى التعريف عن كل عائلة والقاتل إذ علق رأس أخي على بابنا لم يفعل ذلك عبثا، ولكنه ترك للعائلة ككل وصمة فارقة يحملونها معهم أينما ارتحلوا، ولهذا كذلك لم يعد في وسعي أن

1 مثل إيطالي

2 سور المعاكيز، أحد أشهر معالم مدينة طنجة، تختلف الروايات عن أصل تسميته، ولكن الأرجح منها أنه كان مكانا يستريح فيه التجار القادمون من خارج المدينة قاصدين سوق طنجة الاسبوعي، كان أهل المدينة يرون الوافدين شديدي الكسل و الإعياء فأطلقوا عليهم اسم المعاكيز و من وقتها حمل السور هذا الاسم .

أذكر أي صورة لباب بيتنا غير تلك التي تفنن في تصميمها قاتل أخي، رغم أنني بقيت لقراءة الأربعين عاما أشاهده كلما دخلت أو خرجت، إلا أنني لا أستطيع أن أتذكر بابنا دون رأس أخي عبد الله... المهبول ينتظر أن يفتحوا له الباب، اللاجئ يتمنى أن يتوقفوا عن دق الباب فكلما دقوا الباب هناك أسمع الطرق يخترق رأسي هنا، وأتذكر عندما قال مالك حداد "لا تطرق الباب كل هذا الطرق فلم أعد أسكن هنا"، هي جملة عادية يمكن لأي كان أن يقولها، تسمعها في السوق أو في محطة الباص أو ربما عندما تخلد للنوم ولا تريد أن يقض نومك أي دخيل ولكن بالنسبة لجموع اللاجئين فإنها جملة تُلخص غصة العمر .

قررتُ أن أترك مكاني مُتعب أكثر احتياجا لقسط من الراحة وأن أعاود الذهاب لذلك البيت علني أجد الجنة قد فتحت أبوابها وابتلعت ذلك المهبول.

جلستُ أنتظر أن تقوم كنزة بفقرتها، لكنني اكتشفت أنني فوتتها وهذا لم يكن مُحزنا ولكنه جعلني مستاء بطريقة ما انتظرتُ أن تأتي لتحيي ولكنها لم تفعل كانت مشغولة بأشخاص يتحدثون الانجليزية بطلاقة وجوههم مشرقة يرتدون ملابس ملونة وأعتقد أن قلوبهم أيضا ملونة، ضحكاتهم تتعانق في الفضاء كفراشات وعيونهم تدمع صافية كلما ابتسموا، فما الذي يجعلها تنتبه لكائن منطفيء مثلي، رغم ثرائه ليس بوسعه شراء حذاء جديد إذ يعتبرها خيانة عظمى، ما الذي يجعلها تهتم لحكايتي المكررة فكل قصص اللاجئين متشابهة، وجعهم وجوههم، حقائقهم وطريقة انتظارهم في المحطات، يدفنون رؤوسهم بين ركبهم كمن سمع انفجار للتو،

ينكمشون على المقاعد كما الحلزونات في انتظار أي شيء قد يجعل قاماتهم تنتصب، كمن يحمل عاره بحقيبة ظهره أينما حلّ هذا هو اللاجئ... هذا هو أنا، وكل الذين تحدثوا عن اللجوء صادقون وكل الذين عايشوه أبطال خارقون، إنهم يشبهون "أخيل" لا يموتون مهما صوبت نحوهم ولكن بمجرد أن تصيب ذكراهم سينتهون... الذاكرة نقطة ضعف كل لاجئ.

أغلقت دفترتي وهممت بالمغادرة، طأطأت رأسي كمن لا حاجة له برؤية أي أحد، وحاولت المرور من أمامها دونما أن تلاحظني شدتني من يدي بسرعة خاطفة وركضت بي حتى بلغنا منصة العرض إن صح أن أسمها كذلك، قدمتني لكل الموجودين بالمقهى "إنه يوسف، ضيفنا من البلد الشقيق الجزائر، سيلقي عليكم بعضاً مما كتب الآن" ثم ناولتني الميكروفون وعادت مسرعة لطاولتها كطفلة شقية، بينما أحسست أن الكرة الأرضية بأكملها تدور حول أرنبة أنفي، يبدو أنني سأتقياً مجدداً ولكني بدلاً من ذلك استجمعت قواي، ثم سألتهم "هل ترغبون بسماع شعر شعبي، لستُ أنا كاتبه إنه لـ "يمة دهبيا" وبما أن الرائعة كثرة منحنتي هذه الفرصة أريد لكلماتها أن تحيا بطريقة ما هنا معكم إن وافقتم صفقوا وحسب".

تعالى التصفيق وكان الكل منتهين إلى أقصى حد، انسحب عازف الكمان ذاك وجلس بدله آخر يحمل نايًا، اندهش للحظات ألسنا جيراناً، ألسنا نتقاسم الجغرافيا والدين واللغة وجل العادات والتقاليد، كيف لهذا الشعب أن يكون فنانا لهذا الحد

كيف يجمعون بين فنين في عرض واحد ونجمع بين قتيلين في قبر واحد... كيف؟!

- "الشرفا يبقاو سُرفا
ولو خذلهم المال
يعي نهار يجمعو الوقفة
ويكذبوا القيل و القال
وقليل الأصل قليل الصفا
يجالس النساء يعافوه الرجال
كي تطيح فيك يستشفى
ما يحشم ما يقدر الأفعال
وكي تنفض روحك وتستعفى
يستنى منك الهفة
ويتقلب عليك كيف الأهوال
ما يعرف لا شان لا العفة
يتوارى كي الغول بين الجبال
إذا قابلتو ما تاخذك بيه رافة
راه يغدرك صفتو قتال
هذاك ما خو، ما يرحمك في الشدة
يعي نهار الي عليك ينهال
قليل الأصل قليل الصفا
عمرو يلحق صفة الرجال"
سمعتُ تصفيقا كثيرا ولكنني لم أرى إلا "يمة ديهيا" بحايكها¹
الناصح البياض تزغرد كيوم حصلتُ على الدكتوراة.

عُدت للبيت ليلتها وأنا مُستغرق في التفكير، دخلت في هالتي البياض تلك بعدما أيقنتُ أنني لا أزال قادرا على مواجهة الجماهير، اليوم فعلتها وبشكل مقبول جدا وهذا أمر كافٍ لأتذكر أنني يوما ما فعلت هذا كوظيفة سهلة ورتيبة ومُملة ولم أكن أهتم كثيرا للشخص الذي يُقابلني، كنت أقدم له المادة التي يحتاجها ليتخطى امتحان الجامعة لا امتحان الحياة لكنني أدركت مُتأخرا أن هذا فعل لا أخلاقي وأني كأستاذ كان يجب أن أعلمهم كيف

1 الحايك: لباس تقليدي جزائري عبارة عن قماش حريري أبيض، كانت النسوة يستعملنه كستر أثناء خروجهن من البيت .

يقتفون أثر الحقيقة ولا شيء آخر، للأسف أدركت هذا متأخرا جداً وانسحبتُ مبكراً جداً كذلك لأنني جبان، أجل بهذه البساطة خالطت الموتى أكثر من الأحياء وهذا كان أفدح أخطائي، كنت أقول "لن أقاتل من أجل الشؤون الكبيرة سأعتني بشؤوني الصغيرة وحسب" وكان إحصاء الموتى شأننا صغيراً كما خُيل لي... كم كنتُ غيبياً، لم يكن هذا الأمر أشبه بالموت، بل كان أشبه بالحياة، كان بالغ السوء والأهمية في آن ولم يكن إلا أن تمنيتُ الموت ولم أبلغه... ليس لضعف مني ولكن لقلّة حيلة جلست على حافة النافذة، كانت السماء صافية ولكنها ليست رحبة الصدر بتأوهاتِي ولا بنظراتي المُستجدية السماء هناك كانت تفهمني، كلما أطلتُ النظر أغاثتني... واستني... بكت بدلا عني وغسلتني من كل كدر فكرتُ كثيرا بعمق وبسطحية ببله وبجدية وكل ما خلُصت إليه هو السراب.

كان المهبول يزرع بروحي أشواكا كلما تحدث، وكنتُ كلما حاولت الالتفاف حول نفسي لتجنّبها أدمت نفس المكان "الرأس" إن أنا انتزعتها نَزَفَتْ وإن أبقيتها جَنَنْتني!!

الروح التواقّة لجنة على الأرض ستتعب كثيرا، إنها دار شقاء مهما حاولنا أن نجعلها غير ذلك، لا يزال بنفس المكان الذي تركته به ولكنه يبدو عاقلا أكثر مما تعودت عليه وواهنا جدا ظن أن الأمر لن يطول وأنه مقبول لا محالة وأن كل معاناته هنا قد محت ذنوبه وصار نقيا كيوم ولدته أمه، ظن المسكين أنه إذا توقف عن فعل الشر وهو بلا عقل كفيل بأن يشفع عن كل شرٍ فعله وهو بعقل كامل، أجلس بمحاذاته، أكاد ألمس خيبته والباب لا يزال

موصدا بوجهه، أهدق به فينكمش كجنين ويضع رأسه بحجري
آه لو أستطيع أن أعتذر لك عن كل هذا الألم الذي آلم بك، تركت
رتبتي الأكاديمية وتركت رتبتك العسكرية أكثرنا بالآف، أقلنا أنا
وأنت، كما أمسكت عنا تُربتها، أمسكنا عنها رُبتنا فقط عاملناها
بالمثل، يهز رأسه وأرى الدموع تخرج من كل مسام جلده إلا من
عينيه، يتحول وجهه للون الأزرق، يُمعن في الفراغ كمن يترك
وصيته للسماء ثم يُهدق بي كأنه يرى المُستقبل مكتوبا على
ناصيتي فيقرؤه بكل يقين، "لا تمُت هنا الدود لن ينهش جثتك، لن
تتحل ستبقى مفتوح عينين تعاني في الظلام وحيدا، ستخبر الموت
بالحياة ولن تستطيع فعل الشيء الكثير، عُد إلى حيث ننتمي
وسامحهم جميعا على أخطائهم وابدأ بنفسك أولا، لا تمكث هنا
طويلا، سحر هذه المدينة سيتلاشى مع الأيام وستتحول أضواؤها
إلى أشباح وستتحول بحرها إلى غول ينقض عليك كل ليلة، يراك
تبول مذعورا فيُقمقه عاليا مُنتشيا لما فعله بك، الناس سيبدون
لطفاء بداية، سيتعاطفون معك ما دمت ذلك اللاجئ ذا الحظ
العاطر، قليل الصحة والمال ما دمت أقل منهم فأنت بخير ولكن إن
حصل وتوظفت ستتحول تلقائيا إلى كائن طفيلي أخذ منهم فرصة
لحياة كريمة لم يكن ليحظى بها في بلده ولن يبقى أحد كما كان
لطيفا... اسمع متي يا بني ربما للوهلة الأولى ستبدو هذه الأرض
جودة كريمة معك ولكنها لن تبقى كذلك طويلا، أو تعرف لماذا لأن
عطاءها سيبقى دائما مُسجلا على رقبتك وعليك سداده بطريقة
أو بأخرى، أما في تلك الأرض، أرضنا التي ما عادت كريمة فكما لا
تمن عليك بما أعطت فهي لا تعتذر عما فعلت... يا بني اذهب إلى

حيث يأخذك قلبك، لا تعش هاربا ستموت مثلي ذليلا، ولن يضعوا شهادة على قبرك ولن يترحم عليك أحد، يا بني اعلم أن المُسامح يخسر أكثر مما يربح ولكنه على الأقل يموت بلا ندم". ثم انطفأ كأنما لم يكن يوما، ولكن لم يُعزني به أحد، إذ كان لا أحد بل كنا لا أحد.

تحدث جُلّ الجالسين عن ذلك المعرض ولكنني وجدتهم أكثر تركيزا على قصة صاحبه أكثر من المعرض بحذ ذاته ولم أفهم أبدا السر في ذلك ولم أفهم إصرار كنزة على اصطحابي معها، من بين كل هؤلاء السادة المُتحمسين والمُتحدثين بشغف تختارني أنا مُجددا، الرجل الأقل تفاعلا أو مُعدمه وتُصر على موقفها :
- لا أهتم بالرسم، صديقتي.

- إنه فن تشكيلي، لوحاتها رائعة وقيل لي أنها ستكون حاضرة... من فضلك.

- لستُ من متذوقي هذا الفن، أعفني أرجوك، لا أجد منطلقا في مجرد التحديق بخربشات على الحائط فلدي ما يكفي منها في مُخيلتي لماذا قد أرغب برؤيتها مُتجلية أمامي ومُزينة بإطار...
- تضحك حتى تدمع عيناها، حسنا لم يُعد طلبا إنه أمر الآن.

- بشرط، أن أشاهد لوحة واحدة وأنصرف.

- إذن دعني أختار عنك.

- لا مانع لدي.

- اتفقنا إذن.

تأبطت يدي وكانت كلما مشينا عشر خطوات ترفع رأسها وتنظر لي براءة وتبتسم، ثم سألتني:

- أين تسكن؟
- في مكان ما هنا.
- هل أنت بلا مأوى؟
- هل أبدو كذلك؟
- نوعا ما، لا تغضب مني.
- يُمكنك القول أنني بلا مأوى، بطريقة ما هذا يصف حالتي.
- هل تحتاج لنقود بإمكانني مُساعدتك؟
- لدي الكثير.
- الكثير من ماذا؟!
- من النقود.
- كم أنت مُضحك (مُستهزئة).
- لا، لستُ كذلك.
- أعتذر.
- عن ماذا تعتذرين؟
- ربما أذيتُك، لم أقصد.
- لا أحد يُقدم اعتذاراً عن شيء لم يقصده، حتى القتلة لا يعتذرون عندما يخطئون التصويب أو تحيد قنابلهم عن المسار فلا تعتذري عن مُجرد القول كما أن كلامك ليس فيه ما يؤذيني يا صغيرتي.
- أنت رجل طيب.
- أنا رجل وحيد.
- تأكل "حمص بالكمون".
- أجل.

- نقترب من صاحب العربة، أُخرج محفظتي لأدفع، ينظران إليّ غير مُصدقين:

- كم تساوي هذه يا سيدي؟

- لا أعلم، كافية أليس كذلك؟

- أكثر من اللازم، تستطيع أن تشتري بها عربتي وما فيها.
- وهذا المُراد.

- لم تكن تمنح، تقول كنزة.

- لم أجد المزاح يوماً.

نُكمل طريقنا وهي غير مُدركة لما يحدث، لم تستطع أن تكن مرتاحة أبداً ورأيت بعينها العسليتين عديد الأسئلة، لهذا حاولتُ أن أدافع عن نفسي لا أن أُطمئنها .

- كنزة، أنا من عائلة ثرية، أعرف أنني لا أبدو كذلك ولكن كنا نملك ثلاث محلات مجوهرات وأراضٍ وممتلكات كثيرة، أنا أستاذ جامعي، أدرس التاريخ، حتى لا يذهب عقلك للاحتمال المُعتاد.
- لم أقل شيئاً.

- لا يجب أن تقولي، إنها مُهمة اللّاجئ الجديدة: درء التُّهم.

لم يكن "الحمص بالكمون" طيباً أبداً، احتجت لشرب الكثير من الماء ليتلاشى مذاقه ولم أفجح، إن كان للفترة التي أعيشها حالياً طعمٌ فأظنّه سيكون بهذا الشكل، بذوق "الحمص بالكمون" الذي لم يغسله الماء كما لم تغسل الدموع أياً من غصّاتي.

كأن ليلاً بكلّه جثم على صدري حتى ملاً كل منابع النور، ليلاً بلا نجوم وبلا قمر فقط أشباحاً تترنح جيئةً وذهاباً بلا هدى ولا بصيرة وكذلك أفعل مثلها أصهّل ليس كحصان بل كهذا الليل الطويل

حالك السواد الذي أضاع كل نجومه... ليلٌ يبحث عن هداه إلى صبحٍ بعيد دون أن يجرؤ على فتح أي نافذة لاستقبال نور الشمس... هكذا وقفت مُصابا بالشلل وبالدهشة، أنا وجهها لوجه مع ندوبي، إنني على بضع سنتيمترات مصلوبا على هذا الجدار إنني أعبّر القارات عاريا وهم لا يخلجون من عرضي هكذا، لماذا لم يسألني أحدٌ عن رأيي، لماذا انتهكوا خصوصيتي بهذا الشكل، ألم يكفهم أن انتهكوا وطني وسُمعتي وحياتي كلها ظننتُ أنني تفوقت في هذه النقطة وأني انعزلت تماما لأحافظ على كل دواخلي خفيةً ومُهممة... ها أنا ذا أقف مكتوف اليدين أمامي والناس يُحدقون بي ولا ينتهون للشبه الكبير بيني وبينني فقط يرمقون الاسم في أسفل اللوحة بكثير من الإجلال "شعبية"¹، كنت ساكنا تماما بينما تملمت على الجدار المُقابل أمطتُ اللون الأحمر عن شفتيّ تفقدته يبدو أن درجته مناسبة جدا لون عيوني كذلك، عدد أصابعي، شعر صدري، ضخامة رأسي، عظامي خضراء وجلدي أسود، لقد عرفت أنني أتعفن حد التعب، كلّه في مكانه المُناسب إلّا وجعي ما ينبغي أن يُختزل في بضع سنتيمترات على جدار... إن وجعي هو بحجم الوطن بل وجعي هو لضياع الوطن، هل جرب أحد ألم ضياع الأوطان إذن، هنا أنا لم أكن مرميا بجُنب كما اعتقدت وكما يوحي اسمي بل كنتُ مصلوبا على جدار ولأنّ ما من مُعجزة بوسعها أن تجعلني أتخلص أو قليله أتملص أظنني

1 الفنانة التشكيلية "شعبية طلال، تُعتبر أيقونة من أيقونات الفن التشكيلي المغربي، لوحاتها جالت جل بلدان العالم وموجودة بمتاحف كبيرة، وهي تعتبر مؤسسة مدرسة فنية جديدة بالمغرب .

سأسكن هذه الستيمترات المربعة حتى يُؤذن لي بالانصراف إلى حيث ينتهي الواهمون أمثالي، ما كان علي أن أقبل طلب "كنزة" إنها لمجازفة كبيرة أن يراني كل هؤلاء الغرباء فيُدققون بتمازج الألوان دون أن ينتبه أي منهم للون الفقد في قاع العيون... لماذا رسمتني دون أن تطلب مني صورة جديدة، أريد أن أكون كامل التفاصيل أريد أن أكون حقيقيا وأنا هنا ناقص فلا قطرة حمراء تُزين وجهي ولا عرق يتصبب من مسامي الواسعة، هذا يُفرغ الفن من معناه
كنزة... كنزة... كنزة.

- ماذا... ما الذي يجري؟
- إنه أنا، ألم تريني.
- أين؟
- هنا... مصلوبا على الجدار.
- لا أظن، كيف خمنت هذا؟
- إنني أحمل رأسا بين يدي، ألم تنتبهي؟
- وماذا؟
- لن تفهمني... أطلبي أن يرسموا قطرة دم حمراء في هذا مكان -
مُشيراً لجهته - وأصري أن تبدو سائلة ولزجة ولامعة.
- هل ستشتري اللوحة؟
- أبداً، أريد أن أعلق على جدران كثيرة وفي أماكن شتى وشرطي أن أكون كامل التفاصيل.
- إنك تهذي... احصل على بعض النوم.
- سأبقى هنا، أريد أن أشاهد الزمن يُتلفني دون أن أتدخل.
- وهل تتدخل في العادة؟

- لا أبدا.

- إذن.

- أنا لا ألاحظ نفسي أتلف في العادة بينما بهذا الشكل فأستطيع...
صليتُ طوال الليل، أردتُ أن أحس بأن الصباح ممكنُ جداً إن
أنا انتظرتَه بطريقة صحيحة ومُجدية، صليتُ ولم أتعب ولم
ينتقضُ وُضوئي ولم أبكي كلما تذكرت ذنوبي الصغيرة، ولم أطلب
من الله أن يغفر لي، أردت أن أستشعر أنني قريبُ منه وفقط،
سألته كل الأسئلة الساذجة والغبية التي كنتُ أخجل الإفصاح
عنها من يوم بدأت التناقضات تعصف بي... لم يسلم الله جلدي
ويُلقيني في جهنم ولم يُسلط عليّ موتاً لأسقط من طولي، سمعني
الله بكل حفاوة ولم يُزعجه في شيء تقاعسي عن العبادات، عاملني
بكل وحب ورافة وعندما بزغ الفجر أدركت أنني كمخلوق اقترفت
ذنبا واحدا لا يقبل المغفرة، إذ سمحت لمخلوقات ضعيفة أن
تدلّني على الخالق العظيم، فرأيته بعين الخائف لا بعين المُحب
الله لا يحتاج لكل تلك الوساطات عندما أدركتُ ذلك تحطمت كل
الحصون والجدران وتلاشت كل الأبواب المؤدية إلى اللامكان... الله
لا يعاملنا بالمثل ولو كان كذلك لشككتُ بألوهيته، هي أمي التي
أنجبتني ولا يسعها أن تفعل فكيف بخالقي وخالقها، ما حدث
معنا ليس عقابا كما اعتقدت، ما حدث هو تقدير ما لحكمة ما
وليستمر أحد ما أحد ظنّ أنه الحلقة الأضعف ولكن اتضح
العكس، أنا أعسر، طوال حياتي أكلت بيدي اليمنى على مائدة
العائلة وبالسرى كلما كنتُ لوحدي، الآن أعلم جيدا أن الله لا
يهتم بأي يد أكل يُبيدنا القتلة بيدين مضمومتين ولا أحد يجرؤ

على نهرهم ويفعلون معي هذا بينما أكل فقط، أنا هنا أجرب أن أكون الإنسان الذي أستحقه دون أن أصطدم بكل تلك الأحكام التي كبلتني لوقت ليس بالهين وأول شخص أريد مُقابلته الآن هو قاتل أخي، لأسأله أمرا واحدا: هل صحيح أنك ترددت قليلا قبل أن تُجهز على أخي كما كلّ القتلة أم أنّك رأيت قتله ثوبا لا بدّ لك من نيله دون أن يسبقك إليه أي أحد، ربما لو أردت أن أقنع نفسي بهذا لوجدتُ إليه سبيلا، تعلّم عقلي كيف يُحلل بطريقة فذة تُجنبه الانحياز ولكن ما عُدركم في "رحمة"، أي نوع من التهديد شكلته هذه الطفلة على مخططكم في إقامة الدولة التي تريدونها دولتكم المربعة الحادة الزوايا تُكدسوننا في الوسط وتُقْتلوننا من أي زاوية شئتم، زاوية الدين تارة وزاوية العلمانية تارة أخرى، زاوية العرقية تارة والزاوية اللغة تارة أخرى ولكن لا منطلق في الدنيا يستطيع إيجاد سبب مُقنع ليقبل هذا الفعل... لا يزال شوك المهبول يُدمي رأسي ولكنني أحاول أن أحسم الأمر... لا بدّ أن أجد طريقة لأقبل هذا كتجربة مريرة لا بد منها ولأعيش كمُسامح لا كضحية.

الفصل الأخير

ثم حلّ الظلام...

"المصالحة لن تُصبح نافعة عندما يعمُ الشر وتسد المظالم
وتنتشر روائحه الكريهة"
واسيني الأعرج - سيرة المنتهى -

ورأيت فيما يرى "المهبول" أن الحياة أخيرا عقدت صلحا معي... شرّعت ذراعها تنتظر إقبالي ورغم ثقتي أنها لن تفعل ما دمت لم أسامح نفسي... فكرت لا يمكن أن تكون أكثر قسوة مما فعلت فقررت المخاطرة انتعلت نفس الحذاء الذي قدمتُ به إلى هنا بادئ الأمر، وكأنني لم أغادر قط، ودعتهم بكل عطف رغم توسلات أختي لثني عن قراري، أما أبي فلم يستطع توديعي ركبت سيارة تاكسي إلى المطار، لأول مرة في حياتي أكون على هذا القدر من الثقة لما أريده، كان أن نفذت الوصية كما نزلت من السماء على لسان ذلك المجنون وصدفته جدا عندما أخبرني أن سبيل خلاصي الوحيد هو أن أسامح... اغتنمت الفرصة إذ سألني الوطن إن كنت سأسامح وأنسى... فاخترت أن أسامح لكن يستحيل أن أنسى.

"لا تكن الشيء بل كُن فعله، لا تحمل هوية مزورة مهما خذلك هذا الحُضن المبتور الذراعين، لا تُبحر في عمق ذاتك بجواز سفرٍ مليء بالشكوك والتشوهات، لا تنظر لنفسك في صورتك بل في وجه غيرك تجد التفاصيل الفارقة، لا تخف من وقع خُطاك على زجاج الألم بل كن أنت الهشاشة التي تقاوم كل ألم، لا تخض حريك الخاصة مع الجماعة التي أحلّت استخدام الكلام لأن هذا غير مُجدٍ، لا تكن أول من يُغادر، ولا تكتب أنت النهاية، كن كالمرايا اعكس وجوه الجميع إلا وجهك لكي لا تشعر بالتعب، تصبب عرقا إن شئت ذلك، هذا ليس فعلا مُشينا أكثر من الخوف، لا تحبس أنفاسك ليعيش غيرك بنفسٍ أطول ليس أحق منك، لا تُغلف حُلمك كي لا تخنقه العتمة فليلك طويل وضيق والأحلام لا بد أن تكون حُرّة ومُدويةً شأنها شأن الحُب، لا تكن الشيء بل كُن فعله،

اعصر ليموناً على جُرحك وتوجع لأنك تُحب أن يبلغ أملك مُنتهاه ولكن هذا لن يُحرر روحك من شخص ستكونه بعد أن يزول أثر الحموضة عن ذكرياتك، لا يجب أن تكون حذراً وإلا انكسرت كل الأغصان تحت وطأة الزمن، فقط عِش فهذا سيبدو أكثر صفاءً إن نحن أمعنا النظر"، قرأت رسالة كتنزة بكثير من المحبة والامتنان، نفذت ما وعدتها به، "عندما تحلق الطائرة بعيداً، افتح رسالتي، أريدك أن تتحرر من كل تلك الأحمال في اللأمكان " ابتسمتُ ولأول مرة أرى دمعتها ينزل صافيا عذبا، ولكنني رجل لا أجد مواساة أحدٍ حتى نفسي، لهذا حافظت على المسافة بيننا ولوحت لها مودعاً.

الهدوء، هذا ما لمستته، مطار هادئ، أناس قليلون، كثير من التفتيش والانتظار والتوجس، غفوت، كان الكلب أمامي، يقضم العشب عيناه وديعتان وشهيته مفتوحة للكثير منه، اقتربت كان أليفا مسحت على رأسه، بدا غريباً وهو يمضغ بقايا العُشب الأخضر اليانع تتطاير من بين أسنانه، عندما اقتربت بما يكفي شرع فمه وأطبق على رأسي صرخت... صرخت... صرخت

- إنه مُجرد حلم سيدي، سيدي، أنت بخير؟

- أنا بخير (بصوت مُتهدج).

- يسألني السائق "إلى أين؟"

- أقرب مركز اقتراع لو سمحت.

كُنت خائفاً أن أغير رأبي، علاقتي بالأحلام غريبة وهي عادة تتحقق، إنها كل ما ورثته عن دهبيا، كل أحلامنا هي جزء من حقيقة

مُستقبلية آتية لا محالة، اتجهت للصندوق لأدلي بصوتي " نعم أنا مع"، فجأة لمحت انعكاس صورتي عليه... رأيت قطرة الدم تنساب على وجهي وعادت كل الصور البشعة بتتابعها الزمني الدقيق وكأنها تحدث الآن... فكسرت الصندوق لئلا أراها مجددا... ها هي ذي الحياة مُجددا تخنقني... شدت عليّ كثيرا... قليل من الحب كان سيكون كافيا... جدا كافيا... لييتني ما أقبلت لييتني ما خاطرت... كَبَلوني، وضعوا كيسا أسودا على رأسي ثم حلّ الظلام.

تمت